University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

الهجمات الصليبية على المغرب الإسلامي واستدعائها لتأسيس أيالات المغرب العثمانية 1492 – 1574م

أ. ناصر الهادي الحضيري.

(محاضر مساعد – كلية الآداب – صبراتة - جامعة الزاوية - ليبيا)

University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس – مارس 2016

الهجمات الصليبية على المغرب الإسلامي واستدعائها لتأسيس أيالات المغرب العثمانية 1492 – 1574م .

Entrance:

It testified the tenth century H - the sixth century AD, a major shift in the international forces in the Mediterranean basin structure, formed in the spacious expanse of the world's balance of power from new, renewed conflict is most intense between East and West pigmented religion. After the conquest of Constantinople (1453) continued the Ottoman Islamic campaigns in eastern Europe and the eastern Mediterranean, and after the fall of Granada (1492) continued the Spanish Christian campaigns on the coast of Morocco the Islamic countries and the basin of the western Mediterranean Sea, was the issue of "Moors" They are the remains of Muslims in Alondls- after fueling conflict after the end of Muslim rule in Andalusia, where they were forced as a result of abuse and torture practiced by their so-called courts of Spanish inspection to evacuate their home countries to be the last evacuation of the decision of the final expulsion in 1609, and has resulted in the migration of some new results on the Moroccan society, including maritime fueling the conflict between the Islamic and Christian forces, has pushed Spain behind those fleeing to the coasts of the Islamic Maghreb was to be Moroccans to repel the movement of this confront movement a "maritime Jihad movement". And successively the events of this conflict after the emergence of the Ottoman Empire on the scene in the western Mediterranean, and Leave them Moroccan defensive attacks, which resulted in the presence of Ottoman rule in the western Mediterranean established a Moroccan Alayalat (states). In this paper we will try to historical study following this conflict, and the role of the Islamic Maghreb countries and then the Ottoman Empire in it, and finally the political changes that resulted from the conflict in the region, can also be through this study, exposure to the features of the political, economic and social life in the Moroccan Alayalat and political ties and economic contemporaneous with countries and entities. Based on the above, this study aims to visualize stage of the conflict between what is known as the Islamic and Crusader West Morocco. And stand on political factors, economic and religious dynamics of this conflict.

كلمات مفتاحيه: الهجمات الصليبية – الاسبانية – الدولة العثمانية – المغرب الإسلامي– الايالات المغربية – الجزائر– تونس– طرابلس الغرب .

مقدمة:

شهد القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي ، تحولاً كبيراً في بنية القوى الدولية في حوض البحر المتوسط ، وتشكلت في هذه الرقعة الفسيحة من العالم موازين القوى من جديد ، وتجدد الصراع على أشده بين الشرق والغرب مصطبغاً بالدين. فبعد فتح القسطنطينية (1453) تابع العثمانيون حملاتهم الإسلامية في شرق أوروبا وشرق البحر المتوسط ، وبعد سقوط غرناطة (1492) تابع الأسبان حملاتهم المسيحية على سواحل بلدان المغرب الإسلامي وحوض البحر المتوسط الغربي ، وكان لقضية "الموريسكيين" وهم بقايا المسلمين في الأندلس- إثر تأجيج الصراع بعد انتهاء الحكم الإسلامي في الأندلس ، حيث اضطر هؤلاء من جرّاء التنكيل والتعذيب الذي مارسته عليهم ما يسمى بمحاكم التفتيش الأسبانية إلى الجلاء عن أوطانهم إلى أن كان الجلاء الأخير بقرار طردهم النهائي في عام 1609، ولقد ترتب على هجرتهم بعض النتائج الجديدة على المجتمع المغربي، ومنها تأجيج الصراع البحري بين القوى الإسلامية والمسيحية، فقد اندفعت أسبانيا وراء هؤلاء الفارين إلى سواحل المغرب الإسلامي فكان لابد للمغاربة من صد هذه الحركة بحركة مجابهة وهي "حركة الجهاد البحري".

وتلاحقت أحداث هذا الصراع بعد ظهور الإمبراطورية العثمانية على مسرح الأحداث في غرب البحر المتوسط، ودعمها للهجمات المغربية الدفاعية،والتي أسفرت عن تواجد الحكم العثماني في غرب المتوسط بتأسيس الايالات المغربية.

وفي هذه الدراسة سنحاول عبر المنهج التاريخي تتبع هذا الصراع ، و الوقوف على دور بلدان المغرب الإسلامي ثم الدولة العثمانية فيه , و أخيرا التغيرات السياسية التي ترتبت على ذلك الصراع في المنطقة , كما يمكن من خلال هذه الدراسة التعرض إلى ملامح الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الإيالات المغربية وإلى علاقاتها السياسية والاقتصادية مع الدول والكيانات المعاصرة لها.

وبناء على ما سبق فان هذه الدراسة تهدف إلى تصور مرحلة من مراحل الصراع بين ما يعرف بالمغرب الإسلامي والغرب الصليبي. والوقوف على العوامل السياسية و الاقتصادية و الدينية المحركة لهذا الصراع .

مدخل:

من وجهة نظر أوروبية، استمرت من ظهور الإسلام وفتوحاته إلى ما بعد العصور الوسطى، كان المسلمون يشكلون تهديداً للعالم المسيحي الغربي.[1] وقد أدت هذه النظرة والدعاية لها إلى أن لاقت فكرة الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي رواجاً في أوساط شعوب أوروبا، فلقد كانت هذه الحروب الوسيلة التي من خلالها عبر الغرب الأوروبي عن حماسته الدينية، ونقمته على الإسلام والمسلمين، وعن رغبته في التوسع والاستعمار والاستغلال، وعن ثورته على الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت الغرب الأوروبي في تلك الفترة.[2]

ولقد استمرت الحملات الصليبية على العالم الإسلامي، إلى أن توقف المد الصليبي عن الصليبيين بعد فشل حملة "لويس التاسع" على تونس (668هـ / 1270م)، واستعادة المماليك "لعكا" آخر المعاقل الصليبية في المشرق سنة (690هـ / 1291م).

وبانتهاء القرن الثالث عشر الميلادي أُسدل الستار على الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي ؛[3] أما في الأندلس، فقد تمكنت الممالك المسيحية في الشمال من قصر السيطرة الإسلامية على الجزء الجنوبي منه، وأخذت حركة الاسترداد الإسبانية Reconquista، انطلاقاً من القرن الحادي عشر، تحقق تقدمها العسكري في الأندلس على حساب الوجود الإسلامي، الذي استمر في تقدمه الحضاري ضمن هذا الصراع .[4]

وتجدر الإشارة إلى التدخل الكنسي في توجيه الأحداث الحربية في الأندلس، فعندما كانت الكنيسة تقوم بتأجيج الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي في هذه الفترة، رفضت طلب بعض أمراء أسبانيا للاشتراك في تلك الحملات الصليبية، مؤكدة لهم أن عملهم الحربي ضد المسلمين في الأندلس يشكل دعم وتأكيد كبير لمشاريع الكنيسة في المشرق، وذلك من حيث أن محاربة المسلمين في الأندلس تعوق دون تقديم المسلمين لأي معونة لإخوانهم في المشرق.[5]

ولقد كان البابا (أنوسنت الثالث 1188 – 1216م) هو صاحب فكرة إثارة الحماسة الدينية وتشجيع المتطوعين من البلاد الأوروبية على المشاركة في الحروب ضد مسلمي الأندلس والمغرب، واجتمع عدد كبير من فرسان أوروبا للمشاركة في هذه الحرب تحت زعامة رئيس أساقفة "تاربون" وتضافر مع ملوك "آراجون، ونافار، وقشتالة"، فأنزلوا الهزيمة بالنجدة المغربية الإسلامية في

---

(1) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ترجمة: محمد زهير و آخرون , ج1,ط2 ,سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ضمن مجلة عالم المعرفة (الكويت, 1988) ص27.

(2) محمد محمد أمين، شمال أفريقيا و الحركة الصليبية 1189-1390، مجلة الدراسات الإفريقية, العدد1,(القاهرة, 1974) ص150.

(3) عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون و المواركة، مطابع International press , (القاهرة 1983) ص66.

(4) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس – دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي , مطبعة التأليف للنشر و الترجمة (القاهرة1970) ص332.

(5) عبد الكريم التواتي، مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، مكتبة الرشاد (الدار البيضاء، 1967) ص600، 601.

موقعة العقاب سنة (1212م).[1] تلك الهزيمة التي كانت بداية الانهيار الإسلامية في الأندلس، إذ أخذت بعد ذلك الممالك الإسلامية في الأندلس، تتساقط الواحدة تلو الأخرى، في أيدي الأسبان حتى سنة 1492م ثم بدأ دور الهجوم الأسباني المسيحي على الشمال الأفريقي.[2]

وبسقوط غرناطة سنة 1492م، استؤنفت الغزوات الصليبية على بلدان المغرب، وبدأت تتشكل الخطوط الأولى لشكل جديد من الصراع بين الشرق والغرب، تزامن مع نتائج حركة الكشوف الجغرافية، وتحول إلى صراع بحري امتد من حوض البحر المتوسط إلى الساحل الشرقي للمحيط الأطلسي والمحيط الهندي والبحر الأحمر.[3]

لقد كانت عملية سقوط غرناطة – على إثر توحد مملكتي "آراجون وقشتالة"، بزواج فرديناند الخامس Ferdinand V ملك آراجون، وإيزابيلا Isabella ملكة قشتالة عام 1469 – نهاية لمرحلة في تاريخ شبه جزيرة إيبيريا، وبداية مرحلة أخرى بين أسبانيا المسيحية ودول المغرب الاسلامي ، فلقد فتحت هذه الوحدة باب الحرب على مسلمي الأندلس، وامتدت عقداً كاملاً من الزمن فيما بين سنتي 1481 و 1491م، وبدأت باحتلال المدن الرئيسية في مملكة غرناطة، وضرب الحصار على السواحل باستخدام أساطيل البرتغال وآراجون وإيطاليا، لمنع وصول الإمدادات من المغرب الإسلامي إلى أن انحصرت الحرب في نهاية العقد في المنطقة المحيطة بمدينة غرناطة التي ضيق الخناق عليها، فاستسلمت في الثاني من نوفمبر 1492م.[4]

وقابل الوحدة الأسبانية حالة من التفكك والضعف في بلاد المغرب، أدت إلى تشجيع إسبانيا لحركتها في استرداد الأراضي من المسلمين في الأندلس، وبعد ذلك إلى خرق لمعاهدة تسليم غرناطة، والتي تضمنت شروطها احترام عقيدة المسلمين وتقاليدهم وملكيتهم،[5] وكذلك تشجيعها للاستيلاء على بلدان المغرب ونهبه، وتأكيد إضعاف قوته وعدم تمكين مسلمي المغرب من نصرة أخوانهم اللاجئين إليهم من بلاد الأندلس، بعد خرق معاهدة التسليم والاضطهاد والممارسات الغير إنسانية التي تعرضوا لها في الأندلس.

ولقد تركت هذه الممارسات آثارها السيئة في نفوس المهاجرين، الذين تحول بعضهم وحولوا معهم جمع من سكان سواحل بلدان المغرب إلى غزاة في البحر في محاولة لاسترداد بعض حقوقهم التي سلبت منهم، واضطروا لتركها في ديارهم الأندلسية تحت وطأة المطاردة ومحاكم التفتيش، وكذلك لصد السفن المسيحية والأسبانية التي تعترض سفن المسلمين الفارين بما خف حمله وارتفع ثمنه.[6]

---

[1] عادل سعيد بشتاوي، المرجع السابق، ص65.

[2] زاهر رياض، شمال أفريقيا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1981) ص174، 175.

(3) عمار جحيدر، "الجهاد البحري في العصر الحديث – ملاحظات ومصادر"، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد الخامس (طرابلس، 1988) ص413.

[4] عادل بشتاوي، المرجع السابق، ص100، 101.

[5] محمد الهادي أبوعجيلة، النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القرمانلية – 1711 – 1835م، وأثره على علاقتها بالدول الأجنبية، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1997م) ص34.

[6] جلال يحيى، المغرب العربي – الحديث والمعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب (الإسكندرية، 1983) ص99.

وفي الوقت نفسه اشتملت الخطط الأسبانية والبرتغاليين على الهجوم على أقاليم المغرب الإسلامي واحتلال موانئه، وتحويل سكانه إلى المسيحية إن أمكن ذلك، ولقد كان البرتغاليون قد سبقوا الأسبانيين في عملية التوسع والاستيلاء في شمال أفريقيا، فلقد استولى البرتغاليون على مدينة سبته وطنجة سنة 1437م، ثم أزمور وأصيلة، واتخذوا من موانئ هذه المدن بعد السيطرة عليها قواعد لانطلاق سفنهم الحربية والاستكشافية.[3]

ولتفادي صدام محتمل بين أسبانيا والبرتغال – دعا البابا إلى عقد اتفاقية بينهما في 7 يونيو 1494م – معاهدة توردسيلاس Tordesillas – اقتسمت فيها الدولتين مناطق نشاطهما التوسعي فكان لإسبانيا شمال أفريقيا والمناطق الواقعة شرق "حجر باديس"، وللبرتغال المناطق الواقعة في شمال غرب أفريقيا.[4]

وبدأ الأسبانيون غاراتهم على السواحل المغربية، فاستولوا على عدة مدن ومراكز مهمة ابتداءً بالمرسى الكبير عام 1505م، ووهران عام 1509م، ثم "بجاية وعنابة وطرابلس" في عام 1510م.[5]

ومن طرابلس اتجه الأسطول الأسباني بقيادة "بيدرونفارو" PEDRO NAVARRO – نحو جربة ، وبو صوله إليها واجه أسطول "نفارو" هزيمته بعد انتصاراته فيما سبق، وعاد ما تبقى من الأسطول إلى مركزه في طرابلس بعد أن ترك ثلاثة آلاف من القتلى في جزيرة جربة.[1]

وبالمحصلة تمكن الأسبانيون خلال ستة أعوام فيما بين سنتي 1505 و 1511م، من احتلال معظم الساحل الشمالي للمغرب الإسلامي، تاركين الساحل الغربي منه، على المحيط الأطلسي للبرتغاليين يعيثون فيما تمكنوا من احتلاله من بلدانه.[2]

ولقد حاولت بعض القيادات المغربية التصدي للهجمات الأوروبية، ولكنها فشلت في ذلك لضعف إمكانياتهم العسكرية والاقتصادية، وافتقادهم للوحدة السياسية، وعدم السيطرة والاهتمام بالأوضاع الداخلية، وبالتالي عدم إمكانية مواجهة العدو الخارجي، ومثال ذلك "بنو زيان" في إقليم "تلمسان" الذين حاولوا التصدي للاحتلال الأسباني في وهران عام 1509م.[3] إلا أن الأمر انتهى بهم إلى عقد صلح مع الأسبانيين سنة 1512، اعترفوا فيه بالاحتلال الأسباني لعدة موانئ في غرب الجزائر.[4] فأدى هذا الاعتراف إلى الحد من الخطر الخارجي بالنسبة "لأمراء بنو زيان"، ولكنه أظهرهم بمظهر المتخاذلين في ظروف حرب دينية معلنة مع الأسبان وتزايد نزوح المسلمين

---

[3] محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص34، 35.
[4] أندروهيس، افتراق العالمين الإسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، منشورات ذات السلاسل (الكويت، 1986) ص56؛ كذلك محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص35.
[5] أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص96، 101، 119، 141، 144.
[1] أحمد توفيق المدني، المرجع نفسه، ص144، 145.
[2] المرجع نفسه، ص142.
[3] جلال يحيى، المرجع السابق، ص91.
[4] صلاح العقاد، المغرب العربي – دراسات في تاريخه الحديث ومشاكله المعاصرة، المرجع السابق، ص17.

المضـــطهدين من الأندلس، وبالتالي أدى هذا إلى انفصـــال القيادة عن قاعدتها، ومهد كذلك لاتجاه الرأي العام للبحث عن قيادة أو قيادات بديلة.[5]

وفي هذه الظروف ظهرت على ساحة الصراع في غرب البحر المتوسط قوة جديدة، غيرت مجرى الأحداث تمثلت في الأخوين (عروج وخير الدين بربروسـا) واللذان مارسـا نشـاطاً بحرياً مضاداً للنشاط الأوروبي في غرب البحر المتوسط.

اتخذ الأخوان بربروســا جزيرة جربة قاعدة لانطلاق عمليات أســطولهما، بمقابل خمس الغنائم للسلطان الحفصي، وبعد أن استقر الأخوين "عروج وخير الدين" في جربة، قاما بعدة حملات بحرية على السواحل الأسبانية نقلاً خلالها عدد كبير من الأندلسيين المضطهدين إلى سواحل شمال أفريقيا، ومنذ ذلك الحين ذاع صيتهما في أوروبا والمغرب الإسلامي.

وبمساعدة الحفصيين تمكن "عروج" من استعادة "بجاية" من السيطرة الأسبانية، وبعد ذلك قام بنقل قاعدة عملياته من جربة إلى ميناء "جيجل" شرقي مدينة الجزائر.[6]

وفي تلك الآونة انتهز أهالي مدينة الجزائر موت الملك "فرديناد الخامس" عام 1516م، فاستنجدوا "بعروج وخير الدين"، لتخليصهم من الأسبان المحتلين ومن الضريبة التي كانوا يدفعونها لهم، فاستجـــاب الأخوين لاستنجـــاد أهالي الجزائر، وبعد محاولاتهم من طريق البر والبحر تمكنوا من طرد وهزيمة الأســبان والســيطرة على مدينة الجزائر بعد خلع حاكمها الموالي للأســبان ســنة 1516.[1]

ومن الجزائر امتد نفوذ الأخوان بربروسا حتى حدود المغرب الأقصى، ففي سنة 1517م، استولى عروج على تلمسان ومديا وملیانه، إلا أن تعاون بنو زيان مع الأسبان للقضاء على عروج، أدى إلى القبض عليه من قبل الأسبان، فأعدموه في سنة 1518.[2]

وبعد وفاة عروج آلت قيادة المقاومة إلى أخوه خير الدين، الذي اســتمر في مقاومة الوجود الأســبـاني في بلـدان المغرب، إلى أن تحرج موقفـه في مجـابهـة القوى الأوروبيـة، فـاتصـــل بالإمبراطوريــة العثمانيــة وطلب مساعدتها في حركته، فأمده "السلطــان سليم الأول" بألفي جندي ودعم تـصديه للهجمات الأوروبية ومنحه لقب "بيكلربك" وقيادة الأسطول العثماني في غرب البحر المتوسط.[3]

- التدخل العثماني وتأسيس الإيالات المغربية 1518 – 1574م:

---

[5] جلال يحيى، المرجع السابق، ص91.

[6] بسام العسلي، خيرالدين بربروس والجهاد في البحر (1470-1475) دار النفائس (بيروت، 1980) ص91.

[1] أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره – 1800 – 1830، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة الإسكندرية، 1998) ص10.

[2] محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص37.

[3] آتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنـــة 1911، ترجمـــة وتقديم: خليفـــة محمد التليسي، ط2، الدار العربية للكتاب (طرابلس – تونس، 1991) ص188.

في أوائل القرن السادس عشر، مكن التنسيق بين "خير الدين بربا روسا" والإمبراطورية العثمانية، من مدّ الأخيرة لسيطرتها على معظم سواحل البحر المتوسط، وذلك بعد ضمها لبلاد اليونان، ثم الشام سنة 1516م، ومصر سنة 1517م، وأخيراً الجزائر في سنة 1518م، كأول تواجد رسمي لها في الحوض الغربي للبحر المتوسط على ساحل شمال أفريقيا.

وبمؤازرة الإمبراطورية العثمانية تمكن "خير الدين بربا روسا" من التصدي لهجمات الإمبراطورية الرومانية (المقدسة) على بلدان المغرب الإسلامي.

لقد استمرت الصبغة الدينية التي أعطاها الصليبيون للصراع، بداية من الحروب الصليبية والحركة الخاصة بإبعاد المسلمين عن الأندلس في القرن الحادي عشر. وكان ذلك سبباً "رئيسياً" في تبلور المعركة في شكل صراع ديني بين المسيحية والإسلام.[1] استمر إلى ما بعد سقوط القسطنطينية وغرناطة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، مع الأخذ بالاعتبار نسبية العامل الاقتصادي في معظم الصراعات عبر التاريخ.

فبعد سقوط القسطنطينية سنة 1453م، واصل العثمانيون تقدمهم في أوروبا حتى أسوار فيينا سنة 1529م، ونظر الأوروبيون إلى الانتصارات العثمانية على أنها فتوحات إسلامية، ووقر في أذهانهم أن أي نصر عسكري يحققه العثمانيون، إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية "فباسم الإسلام فتح السلطان "محمد الثاني" عاصمة الدولة البيزنطية، واتخذها عاصمة لدولته، واستبدل اسمها بإستانبول ومعناه "دار الإسلام" وتداعت إلى أفئدة الأجيال الأوروبية المتعاقبة ذكريات الفتوحات الإسلامية الكبرى في صدر الإسلام".[2]

وأمام هذا الزحف العثماني لم يكن من دول أوروبا من تهيأت لها الظروف المناسبة لمواجهته إلا أسبانيا التي توحدت عام 1481م، وتمكنت من كسر الحصار الإسلامي حول أوروبا والذي استمر حتى سقوط غرناطة سنة 1492.[3] وأكدت الملكة إيزابيلا Isabelle، في وصيتها على مواصلة غزو شمال أفريقيا وعدم الانقطاع عن محاربة المسلمين أعداء الدين.[4]

وكان الكاردينال "خيمنيس Ximenes" أسقف طليطلة ورئيس وزراء فرديناند الكاثوليكي قد جعل من نفسه داعية وملهماً للحملات التي اتخذت لون الحركة الصليبية على المغرب الإسلامي، وباشر بنفسه احتلال المرسى الكبير ووهران سنة 1505م،[5] وبعد احتلال الأسبان لطرابلس سنة 1510م، هلل الصليبيون في أوروبا، ونظم بروما موكب ديني، وتبودلت التهاني بين دوق البندقية وملك أسبانيا، ونائب الملك بصقلية، والمرشد الأكبر في رودس، الذي حث الملك على مواصلة حملاته على أفريقيا حتى مصر على أمل أن يتمكن من ضم قواته إليه "لخدمة الله في هذه المهمة السامية

---

[1] جلال يحيى، المرجع السابق، ص97، 98.
[2] عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية...، ج1، المرجع السابق، ص14، 15.
[3] محمد شاكر مشعل، الشمال الأفريقي والعثمانيون – ليبيا، العصر العثماني الأول 1551 – 1711، دار النهضة العربية (القاهرة، 1985) ص6.
[4] عبد الجليل التميمي، "الخلفية الدينية للصراع الأسباني – العثماني على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 10 (تونس، 1978) ص8.
[5] محمد شاكر مشعل، المرجع السابق، ص24.

"Yserviz a Dios en tan meritoria impressa".[1] وكان الأسبانيون يتباهون باحتلال طرابلس الغرب، باعتباره حدثاً سعيداً وانتصاراً لجميع المسيحيين.[2]

لقد أدّى الزحف الأسباني على بلدان المغرب الإسلامي إلى رد فعل مضاد، تمثل في ظهور حركة "جهاد بحري إسلامي" في الحوض الغربي للبحر المتوسط، اتحدت قيادتها فيما بعد بالإمبراطورية العثمانية، وابتدأ التواجد العثماني الرسمي في هذه المنطقة بضم الجزائر، كإيالة تابعة للإمبراطورية العثمانية سنة 1518.[3]

ولقد شكل امتداد نفوذ الإمبراطورية العثمانية إلى شمال أفريقيا خطراً محدقاً بمخطط أسبانيا التوسعي فيها، وحداً لمشروعها الصليبي ضد الإسلام والمسلمين، فقد تمكن خير الدين بمساعدة الإمبراطورية العثمانية من التصدي للهجمات الأسبانية على بلدان المغرب، كما تمكن من خلال غاراته على السواحل الأسبانية من إنقاذ نحو 70.000[4] من المسلمين الأندلسيين الفارين من محاكم التفتيش في أسبانيا، والحد من نفوذ الأسطول الأسباني والأساطيل المسيحية في غرب البحر المتوسط، كما أخذ في توسيع نطاق سيطرته وتخليص الثغور المغربية الوسطى من الاحتلال الأسباني إلى أن تمكن ضمن نضاله ضد الوجود الأسباني من القضاء على حصن "البينون" في سنة 1529م، هذا الإنجاز الذي يعده بعض المؤرخين بداية تأسيس ما عرف بإيالة الجزائر.[5]

كانت أسبانيا هي أكثر الدول الأوروبية تأثراً بانتصارات خير الدين، وقد دخلت في ذلك الوقت ضمن الإمبراطورية الرومانية (المقدسة) الكبيرة، والتي شملت ألمانيا وأجزاء من إيطاليا وأوروبا الشرقية، وأصبح شارل الخامس "المدافع عن كل أوروبا المسيحية ضد الزحف العثماني.[6]

وفي سنة 1534م، تمكن خير الدين من استرداد تونس، وأعلن تبعيتها للباب العالي العثماني، ولكن انتصارات خير الدين المتلاحقة جعلت الإمبراطور "شارل الخامس" يتحرك للحد منها، إيماناً منه بأن العثمانيين يشكلون تهديداً مباشراً لأمن الدول المسيحية، فبدأ بالإعداد لحملة صليبية للإطاحة بخير الدين، والقضاء على نشاطه في المنطقة، وبعد أن استكملت الاستعدادات للحملة في مختلف الترسانات الأوروبية، غادر أسطول الإمبراطور الخاص من ميناء برشلونة في 31 مايو سنة 1535م، وانضمت إليه الأساطيل التي أمدته بها الفلاندر البلجيكية، والبرتغال، وجنوه، وبوصوله إلى ميناء سردينيا، انضمت إليه قوات بحرية من إيطاليا ومالطا، وبهذا بلغ مجموع الأسطول الصليبي أربعمائة سفينة، وبلغ مجموع القوات المشاركة في الحملة حوالي 26.000 مجند،[1] وتمكن الصليبيون من الاستيلاء على حلق الوادي في 14 يوليو 1535م، ثم على مدينة تونس بعد ستة

---

[1] آتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي...، ص176.
[2] عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية ...، ص9.
[3] صلاح العقاد، المغرب في بداية العصور الحديثة، منشورات معهد الدراسات العربية العالمية (القاهرة، 1963) ص39.
[4] عبد الجليل التميمي، "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541"، المجلة التاريخية المغربية، العدد3، (تونس، 1975) ص39.
[5] لقد أقام الأسبان هذا الحصن على أنقاض منار إسلامي قديم مقابل ميناء الجزائر، للإشراف والسيطرة على الميناء ومدينة الجزائر؛ وكلمة "بينون Penon" تطلق على الجزر الساحلية أو الرؤوس الداخلة في البحر، والتي اعتاد الأسبان بناء الحصون عليها في سواحل وجزر شمال أفريقيا، فمثلاً يسمون حجر باديس بـــ Penon de vales. انظر أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص127؛ صلاح العقاد، المغرب في بداية العصور الحديثة...، ص17.
[6] بسام العسلي، المرجع السابق، ص49.
[1] البارون ألفونس روسو، الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ترجمة وتحقيق: محمد عبد الكريم الوافي، ط1، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1992) ص88.

أيام.[2] ولقد أعاد الإمبراطور "شارل الخامس" الأمير الحفصي – "حسن" إلى عرش تونس، وفرض عليه وعلى خلفائه من بعده معاهدة باسم كل المسيحية نصت على: السماح للمسيحيين بالقدوم والعيش في مملكة تونس، والتأكيد على وفائهم لعقيدتهم المسيحية!، وعدم إزعاجهم وتأسيس الكنائس والعناية بها وترميمها، بالإضافة إلى ذلك عدم قبول اللاجئين الأندلسيين،[3] وأن تتعهد تونس بعدم مواصلة الجهاد البحري، وبالكف عن تزويد الغزاة البحريين بالمؤن والسلاح، وعدم استقبالهم بثغور المملكة، والتنازل عن "حلق الوادي" لأسبانيا، ودفع إتاوة سنوية تقدر باثنى عشر ألف ريال ذهبي لتغطية نفقات الحامية الأسبانية المتمركزة فيها، والتنازل للأسبانيين عن حق صيد المرجان في سواحل تونس ، وأخيراً الاعتراف بالسيادة المطلقة للإمبراطورية (المقدسة) على تونس، "وهي السيادة التي يجب أن تعبر عنها تونس بإهداء الإمبراطور اثنى عشر جواداً، واثنى عشر صقراً".[4]

وعلى كل حال، فإن هذه المعاهدة الجائرة، و هذا الانتصار الذي أدى إلى زيادة حماس الصليبيين، لم تُحسم بهما المعركة، وذلك كلما استمر عدم قبول الاحتلال، ولقد اعترف "شارل الخامس" بأنه ليس له ثقة كبيرة في المستقبل لأن الأمير الحفصي الذي أعاده إلى السلطة في تونس، كان مكروهاً من قبل رعيته، وإن احتقاره قد زاد بعد المجزرة الرهيبة التي حدثت عند عودته، ولم يكن في وسعه – أي شارل الخامس – فرض حاكم غير محبوب من قبل رعيته إلا بدعمه بقوات ضخمة، ومع ذلك فإن الإمبراطور قد اكتفى بوضع بعض القوات في قلعة حلق الوادي، وترك للحسن مهمة الدفاع عن نفسه.[5]

وفي الوقت الذي تابعت فيه منظمة محاكم التفتيش لإجراءاتها الإجرامية ضد المسلمين في أسبانيا، واستمر العدوان على سواحل المغرب الإسلامي، استمر خير الدين في جهاده المقاوم للتوسع الأسباني حتى وفاته سنة 1546م.

وبعد وفاة خير الدين استمرت الجزائر هي القاعدة الأولى لقوات الجهاد البحري في منطقة المغرب، والقاعدة الأولى للأسطول العثماني في الحوض الغربي للبحر المتوسط، ومنها تواصل الجهاد ضد القوى المسيحية، وكان الأسطول الإسلامي، قد وصل إلى درجة كبيرة من القوة جعلته مرهوب الجانب في البحر المتوسط، واشتهرت أسماء العديد من قادته، من أمثال: درغوث ريّس، وسنان باشا، وصالح ريّس، وبيالي باشا، وكان في طليعتهم من حيث الشهرة في منطقة المغرب الإسلامي درغوث ريّس والذي خلف خير الدين في قيادة الأسطول والعمليات العسكرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط.[1] وأصبح وجود درغوث حدثاً عظيماً ومرعباً للكثير من القوى الأوروبية في منطقة البحر المتوسط، فلقد كان له سجلاً حافلاً بالنجاحات البحرية والبرية، تحت قيادة سلفه خير الدين، حتى لقبه بعض أتباعه "بسيف الإسلام".[2]

---

[2] جلال يحيى، المرجع السابق، ص126؛ حلق الوادي: تسمية لمرفأ في خليج تونس يصل مدينة تونس بالبحر المتوسط. انظر صلاح العقاد، المغرب في بداية العصور الحديثة...، ص51.

[3] عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية للصراع الأسباني – العثماني...، ص11.

[4] البارون ألفونس روسو، المصدر السابق، ص90، 91.

[5] جلال يحيى، المرجع السابق، ص126؛ عن الأمير الحسن واستنجاده بشارل الخامس، ومجزرة "يوم الأربعاء"، انظر، أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ص14 – 17؛ كذلك حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته...، ص283.

[1] جلال يحيى، المرجع السابق، ص189.

[2] محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص65.

ولقد تمكن هذا القائد في فترة قصـــيرة من قيادته لحركة الجهاد في الحوض الغربي للبحر المتوسط، من تحرير العديد من المراكز المحتلة على السواحل المغربية، فانتزع سوسة والمنستير وصفاقس من السيطرة الإسبانية،[3] بالإضافة لتصديه للسفن الأوروبية التي تشكل خطراً على سفن المسلمين في البحر المتوسط.[4]

وللحد من نشاط "درغوث ريّس" ضد التواجد المسيحي في غرب المتوسط، تتابعت أساطيل الإمبراطورية (المقدسة) على سواحل المغرب الإسلامي للقضاء على حركته، ففي أواخر سنة 1549، انطلقت حملة بقيادة أندريا دوريا إلى جزيرة جربة – التي اتخذها قاعدة تنطلق منها عملياته – اضطرته إلى الجلاء عنها بعد حصاره فيها استمر إلى فبراير 1550، فتوجه إلى المهدية واستولى عليها، وعلى إثر استيلاء درغوث على المهدية – بمساعدة مراد آغا – الذي أرسل إليه من تاجوراء "مئة من الرماة" توجهت إليها حملة بقيادة نائب الملك بصقلية "جيوفاني دي فيجا Giovanni de Vega" وبمساندة منظمة فرسان مالطا، وتمكنت الحملة في غياب درغوث من احتلال المهدية في سبتمبر 1550م.[5]

واستمر سجال درغوث مع القوى المسيحية، وبعودته إلى مركزه في جزيرة جربة، ومواصلة جهاده ضد القوى الأوروبية الصليبية، استدعى شارل الخامس، قائد الأسطول الأسباني – أندريا دوريا وألزمه بالقضاء على درغوث أو أسره، فأقلع "دوريا" إلى نابولي، وبعد شهر من الإعداد انطلقت الحملة من نابولي في مارس 1551م، باتجاه الشواطئ التونسية، وحاصر عدوه في جزيرته، وتمكن درغوث من أن يتفوق على أعدائه، فبعد أن حاصرت القوات المتحالفة من الأسبان والإيطاليين وفرسان مالطا – جزيرة جربة، استطاع "درغوث" - بعملية مدهشة جعلت شهرته عالمية[1] – أن يسحب سفنه عبر قناة، قام بحفرها ومن خلالها تمكن من الخروج إلى عرض البحر، وتمكن من الاستيلاء على سفينة قائد حملة الإمداد من صقلية إلى أسطول "أندريا دوريا" الذي حينئذ ما انفك يحاصر أسطول "درغوث ريس" في جزيرة جربة، بينما كان الأخير وأسطوله يتابع رحلته إلى أستانبول ، وانضم فيما بعد إلى الأسطول العثماني الذي جاء بعد ثلاثة أشهر لفتح طرابلس الغرب.[2]

- تأسيس إيالة طرابلس الغرب سنة 1551:

---

[3] كو ستانزيو برينا، طرابلس من 1510 إلى 1850، تعريب: خليفة محمد التليسي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان (مصراتة، 1985) ص39.

[4] محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص65.

[5] كوستانزيوبرينا، المرجع السابق، ص39.

[1] جان كلود زليتر، طرابلس – ملتقى أوروبا وبلدان وسط أفريقيا 1500 – 1795، ترجمة: جاد الله عزوز الطليحي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان (مصراتة، 2001) ص175.

[2] آتوري روسي، المرجع السابق، ص207.

يعتبر ميناء طرابلس مركزاً تجارياً هاماً، يربط وسط أفريقيا بالبحر المتوسط؛ ولم يتأثر هذا المركز كثيراً بالاكتشافات الجغرافية، كما تأثر كل من طريق مصر والشام، إذ استمرت تجارة وسط أفريقيا تمر بطرابلس، وهي في طريقها إلى جنوب أوروبا وجنوبها الغربي.[3]

وعلى صعيد المواجهة البحرية يشكل موقع طرابلس أهمية كبيرة لا يمكن عدم اعتبارها لتأمين التجارة والتنقل في البحر المتوسط، كما أن مواجهتها وقربها من جزيرة مالطا وسواحل الدويلات الإيطالية، وجزر اليونان، كل ذلك يضفي عليها أهمية استراتيجية كبيرة.[4]

كان ميناء طرابلس قد سقط تحت الاحتلال الأسباني في سنة 1510، على إثر حملة "بيدرونا فارو" والتي قتل خلالها ما يقرب من 5.000 شخص وأسر 6.000 آخرين.[5]

وفي سنة 1513، أسند ملك أسبانيا إدارة طرابلس إلى نائبه في صقلية،[6] واستمر حكم الأسبان، الذين لم يستطيعوا أن يتجاوزوا أسوار المدينة – إلى سنة 1530.

وبسبب المقاومة المحلية للاحتلال الأسباني، وتحول تجارة المسلمين عن مدينة طرابلس إلى مناطق أخرى مثل مصراتة وتاجوراء. وفقدان ميناء طرابلس الواقع تحت سيطرة الأسبان لأهميته كمنفذ لتجارة وسط أفريقيا فاضمحل بذلك مصدراً من مصادر الثروة، وشعرت الإدارة الأسبانية أن احتلال طرابلس صار يشكل عبئاً ثقيلاً على خزينتها. كل ذلك – بالإضافة إلى انشغال شارل الخامس بعد أن أصبح إمبراطوراً للدولة الرومانية (المقدسة)، في حروبه مع فرنسا – جعل شارل الخامس يربط أمر تنازله عن جزيرة "مالطا" لمنظمة فرسان القديس يوحنا، بشرط قبول المنظمة لمهمة الدفاع عن قلعة طرابلس، وبقبول المنظمة بشرط "شارل الخامس"، وقّع الأخير في يوم 24 مارس 1530م المرسوم الذي تنازل فيه عن جزيرة مالطا وقوزو وطرابلس، لهذه المنظمة التي استمرت في محاربة المسلمين، وذلك منذ أن طردهم المسلمون من القدس سنة 1187م. ومن عكا سنة 1291، ومن جزيرة رودس سنة 1523.[1]

---

[3] محمد شاكر مشعل، المرجع السابق، ص25.

[4] عبد الجليل التميمي، "رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية – المغربية في القرن 16م"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 29 – 30 (تونس، 1983) ص74.

[5] الطاهر أحمد الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ط3، دار الفتح – دار التراث العربي (ليبيا، 1969) ص365.

[6] صلاح العقاد، المغرب في بداية العصور الحديثة، المرجع السابق، ص47، 48.

[1] يرجع تاريخ هذه المنظمة إلى سنة 1070، عندما سمح الفاطميون لجماعة من تجار مدينة "آمالفي" الإيطالية، بتأسيس دار لاستخدامها في تقديم المساعدة للحجاج القاصدين الأماكن المقدسة النصرانية بالقدس ولقد أهدى المؤسسون – رمزياً – مؤسستهم هذه إلى (القديس يوحنا المتصدق)، وهو أحد بطارقة الإسكندرية في القرن السابع الميلادي. وفي فترة الحروب الصليبية تحولت هذه المؤسسة إلى منظمة عسكرية، واتخذت الصليب الأبيض شعاراً لها، وأصبح يشار إلى فرقها العسكرية بالإسبتارية – Ospedaliri، وفي كتب المسلمين بفرق فرسان الداوية، نسبة إلى أعمال التطبيب التي اشتهرت بها منظمتهم، كما عرفوا أيضاً (باليوحانيين). وعندما طرد صلاح الدين بقايا الصليبيين من بيت المقدس سنة 1187 لجأوا إلى مدينة عكا، واستقروا فيها، واستمروا في مناصرة القوى الصليبية في حروبهم ضد المسلمين في بلاد الشام حتى سنة 1291م، عندما سقطت عكا على يد السلطان خليل بن قلاوون، فلجأوا إلى قبرص وظلوا بها حتى سنة 1310م، ثم انتقلوا إلى جزيرة رودس، وثابروا على مواصلة الحرب مع المسلمين بتأييد وتشجيع من الباباوية، وتمويل معظم البلاد المسيحية، ومن جزيرة رودس اجتهدت هذه المنظمة في التعرض لسفن المسلمين في البحر المتوسط، ونتيجة للأعمال العدوانية تجاه الأسطول العثماني، أرسلت الدولة العثمانية عدة حملات للقضاء على هذه المنظمة الصليبية، كان آخرها التي أرسلها السلطان سليمان القانوني في 26 ديسمبر 1522م، وبعد حصار للجزيرة دام ستة أشهر، رضخ الفرسان لتسليم الجزيرة للعثمانيين في آواخر يناير 1523، وكان قد سمح لهم العثمانيون بالجلاء عنها ونقل ما يملكون، وتقديراً لأعمالهم العدوانية ضد المسلمين، استقبلهم البابا كلمنت السابع "في روما وأقاموا في شيفتافيكيا Civitavecchia ، ومنها استمر أسطول المنظمة يمارس عملياته ضد سفن المسلمين (أعداء الصليب) وأخيراً وبعد البحث عن مكان ملائم لأعمالهم البحرية العدوانية ضد المسلمين، طالبوا بمنحهم جزيرة "مالطا"، حيث يمكنهم منها مواصلة نشاطهم الصليبي، ففي سنة 1524 ،

ولتنازل الأسبان عن طرابلس لفرسان القديس يوحنا، أكثر من دلالة؛ فهو أولاً: يدل على المقاومة المحلية التي لقيها الأسبان وعدم استكانة السكان للاحتلال وهجرتهم من مدينة طرابلس الأمر الذي أدى إلى تحول تجارة وسط أفريقيا عن مينائها الخاضع للاحتلال، وبالتالي تدهور الموارد الاقتصادية للبلاد فأصبح الأسبان في موقف كان التنازل فيه عن طرابلس أفضل خياراتهم.[1] وثانياً: فإن التنازل لهذه المنظمة يتمشى مع الرؤية التي كان يتبناها الملك فرديناند FERDINAND الكاثوليكي، ورئيس وزراءه الكاردينال "خيمنس XIMENES" لضمان الحفاظ على الوجود المسيحي في شمال أفريقيا "فإنه يتحتم علينا أن نحتل مدن وهران وبجاية وطرابلس؛ وفي حالة احتلالنا لهذه الأخيرة، يتوجب علينا أن نعمر ها برمتها بالنصارى"[2]. وهذا ما جعل وريث فرديناند الكاثوليكي يصّر على تسلم فرسان القديس يوحنا لقلعة طرابلس، والحفاظ عليها كقاعدة أمامية للقوى المسيحية في شمال أفريقيا والبحر المتوسط، والاستفادة من مجهودات هذه المنظمة بتأكيد الوجود الصليبي في المنطقة وتمكينها من القيام بمثل الدور الذي كانت تقوم به في جزيرة رودس.[3]

فعندما أبعد العثمانيون هذه المنظمة من جزيرة رودس سنة 1523، لجأ أعضاؤها إلى البابا الذي أنزلهم في ضيافته، وظلوا يبحثون عن مكان يأويهم ويمكنهم منه ممارسة نشاطهم الصليبي ضد الإسلام والمسلمين فلم "يكن هذا الركود الذي اتسمت به أعمال المنظمة، أثناء إقامتها بإيطاليا، ليتلاءم مع تاريخها الطويل الحافل بالصراع ضد أعداء الصليب".[4] وفي سنة 1524 أرسل المرشد الأكبر للمنظمة، وفداً إلى الإمبراطور شارل الخامس يطلب منحهم جزيرة مالطا، وطالت المفاوضات بين الجانبين، إذ أصرَّ الإمبراطور على أن تتولى المنظمة مهمة الدفاع عن قلعة طرابلس ومدينتها، كشرط أساسي لإقطاعهم مالطا، وقد ترددت المنظمة في قبول هذا الشرط لأنه ليس هناك ما يشجع على احتلال طرابلس، لضعف مواردها وتدهور تحصينات القلعة والميناء، وكل ذلك نتيجة للهجوم الذي شنّته القوات الأسبانية ضد طرابلس سنة 1510، وقد أوردت هذه المعلومات في تقريرٍ وافٍ قام بإعداده وفد من قبل المنظمة، كانوا قد أُوفدوا إلى طرابلس للاطلاع

أرسل رئيس المنظمة وفداً إلى شارل الخامس بطلب منحهم جزيرة مالطا، فأبدى الإمبراطور ترحيبه بشرط أن تتولى المنظمة مهمة الدفاع عن قلعة طرابلس، وبقبولهم لشرط الإمبراطور تم تنازله لهم عن الجزيرة، وجاء في مرسوم التسليم: "رغبة منّا في تدعيم الدير والمنظمة والهيئة الدينية لمستشفيات القديس يوحنا، وتوفير إمكانية الاستقرار لها... وانطلاقاً من محبتنا ومن العطف الذي نحمله لهذه الهيئة، فقد قررنا عن طيب خاطر التنازل للمرشد الأكبر والمنظمة عن مقر ثابت دائم... كلاً من المدينة والقلعة والجزر التابعة إلينا في طرابلس ومالطا وغوزو، مع جميع البقاع التابعة لها. وإقراراً منهم بإقطاعنا عليهم أن يقدموا صقراً في كل عام عند الاحتفال بعيد جميع القديسين". ومن مالطا أسهمت هذه المنظمة إسهاماً حربياً مباشراً في التحالفات والحملات الصليبية الأوروبية ضد المسلمين، وظلت هذه المنظمة فعالة في جهات البحر المتوسط من قاعدتها الأخيرة في جزيرة مالطا حتى سنة 1798 عندما احتلها نابليون في طريق حملته على مصر، ثم خضعت الجزيرة لسيطرة الإنجليز سنة 1800، فاتخذوها مركزاً للبحرية الإنجليزية، التي كانت قبل ذلك قد استولت على جبل طارق، فاستكملت إنجلترا بذلك سيادتها في البحر المتوسط. انظر ابن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، عني بتصحيحه والتعليق عليه: الطاهر أحمد الزاوي، ط2، مكتبة النور (طرابلس، 1967) ص115-117. آتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ص189-192؛ الطاهر أحمد الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا... ، ص378 – 380؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص1195؛ محمد صالح منصور، أثر العامل الديني...، ص279.

[1] محمد شاكر مشعل، المرجع السابق، ص27.

[2] رسالة الملك "فرديناند" إلى الكونت "بيدرو نافارو" بتاريخ مايو سنة 1510، نقلاً عن: شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة وتحقيق: محمد عبد الكريم الوافي، ط3، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1994) ص74.

[3] آتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي...، ص190.

[4] المرجع نفسه، ص191.

على أوضاعها.[5] واستمرت المفاوضات بين منظمة الفرسان والأسبان إلى أن تم للبابا إقناع الإمبراطور باستمرار تحمل الخزينة الأسبانية دفع المبالغ التي كانت تتحملها، لتغطية نفقات الاحتلال، وذلك في شكل معونة سنوية للمنظمة، وهكذا تخلى الأسبان عن جزيرة مالطا وقوزو وطرابلس، واتخذ مرشدهم جزيرة مالطا مركزاً لهذه المنظمة الرهبانية!، ومن ثم أصبح يطلق عليهم إسم "فرسان مالطا" وتم تعيين"غاسبارد دي سانجسّ" GASPARD DE SANGUESSE، لشهرة عدائه للمسلمين وبسالته في صد العثمانيين أثناء حصارهم لجزيرة رودس، كأول حاكم من قبل المنظمة على طرابلس.[1]

وما أن تسلّم فرسان مالطا مدينة طرابلس حتى قوبلوا بعداء المواطنين وكراهيتهم ووجدوا مقاومة كبيرة من قبل المجاهدين الذين تجمعوا في بلدتي تاجوراء وجنزور اللتان نزحت إليهما المقاومة المحلية منذ الاحتلال الأسباني سنة 1510، واشتدت المقاومة بظهور شخصية "خيرالدين كرمان" وهو أحد رجال خيرالدين بربروسا كان قد ولاه قيادة المقاومة بعد مشاركته لبربروسا في أول هجوم ضد قوات فرسان مالطا في طرابلس سنة 1531.[2] وقد تمركز "خيرالدين كرمان" في تاجوراء، وأخذ في تشديد الضغط والهجوم على قلعة طرابلس، وقام بتشييد قلعة محصنة – فوق هضبة المنشية- بالقرب من طرابلس سميِّت ببرج القائد تمكّنه من مراقبة ميناء طرابلس.[3] وفي سنة 1536 حاول أن يفاجئ حامية طرابلس أثناء الليل إلا أن جواسيس الحامية تنبّهوا إلى محاولته، فاتخذت القلعة استعداداتها، وبالرغم من استعدادات الحامية، أوشك الهجوم على تحقيق النصر، لو لم يتلق "خيرالدين كرمان" جرحاً بليغاً جعله غير قادر على مواصلة القتال.[4]

وعلى إثر ذلك عملت منظمة فرسان مالطا، بكل قوة على طرد "خيرالدين كرمان" من تاجوراء، فأعادت تحصين المدينة، وسيَّرت حملة من مالطا بقيادة الأسقف "أورليو بوتيجلا" BOTIGELLA، تمكّنت من تدمير (برج القائد) وبعد هذا الانتصار، رجع الأسقف بوتيجلا إلى مالطا، واستولى في طريقه على سفينة عثمانية، كانت عائدة من مصر وعليها حمولة ثمينة.[5]

وعلى الرغم من هذا الانتصار، فقد استمرت مقاومة الشعب الليبي بإمكانياته البسيطة للاحتلال وإذا كان على فرسان مالطا في السنوات العشر الأولى من حكمهم لطرابلس، أن يحتاطوا لهجمات "خيرالدين بربروسا"، ونائبه على تاجوراء "خيرالدين كرمان"، فقد كان عليهم فيما بعد أن يحذروا جاراً بغيضاً إليهم، تمثّل في شخص "مراد آغا" الذي تولى قيادة المقاومة بعد استشهاد "خيرالدين كرمان".[6]

وما أن تولى "مراد آغا" قيادة المقاومة في تاجوراء، حتى سار على نفس المنهج الذي سار عليه سلفه "خيرالدين كرمان"، وتجمعت حوله المقاومة، واستمر في محاولات استرجاع مدينة

---

[5] انظر " A.P.VELLA ،"The Relatations between the order of MALTA and TRIPOLI مقال ضمن أعمال مؤتمر "ليبيا في التاريخ" (بنغازي 16-23 مارس 1968) ص380.

[1] شارل فيرو، المصدر السابق، ص87.

[2] محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص56؛ كوستانيزيوبرينيا، المرجع السابق، ص34.

[3] شارل فيرو، المصدر السابق، ص87.

[4] كوستانيزيوبرينيا، المرجع السابق، ص35.

[5] شارل فيرو، المصدر السابق، ص88.

[6] محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص60،61.

طرابلس، وصد محاولات فرسان مالطا للتوسع خارج القلعة، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الليبي ابن غلبون: "... ولم يزل مراد آغا يواصل الغزو على طرابلس ويضيِّق على من بها من الروم، ومن ظهر منهم اختطفه المسلمون..."[1]

ولقد أدّت عمليات المقاومة إلى إدراك فرسان مالطا، أنه ليس في استطاعتهم الحفاظ على مدينة طرابلس، بسبب تضييق الخناق عليهم من قبل "مراد آغا" المتطلع لتدخل الأسطول العثماني، إذ كان اهتمام البحرية العثمانية في ذلك الوقت موجهاً للقضاء على قوة فرسان مالطا بسبب نشاطهم الصليبي في البحر المتوسط، ومشاركتهم الفاعلة في الحملات الصليبية على بلدان المغرب الإسلامي.

وبناءاً على مخاوف حاكم القلعة في طرابلس، أوفد المرشد الأكبر للمنظمة في الثامن من يناير 1547، مبعوثاً إلى البابا في روما لشرح الأوضاع التي تمر بها قواته في طرابلس، وطلب المعونة منه لتدعيم القلعة وتزويدها بالجنود للدفاع عنها، مشيراً إلى أن إمكانيات المنظمة ليست كافية لمواجهة خطر تضامن "مراد آغا" والأهالي مع بربروسا ونائبه درغوث ريس"الذين يعتقد أنهم يعدون العدة للاستيلاء على المدينة وطرد الفرسان من القلعة، ويضيف "...وأنه لو حدث هذا – لا قدر الله- فسوف تكون خسارة فادحة لا لمملكة صقلية وكالابريا، ولكنها خسارة للمسيحية بصفة عامة، وستكون وكراً للقراصنة الذين ستمتلئ بهم هذه البحار".[2] ولقد ضمّن المرشد في رسالته للبابا طلب إرسال أربعة أو خمسة ألف جندي لطرد "مراد آغا" من أراضي طرابلس والقضاء على المقاومة.

ورغم إيضاح رسالة المرشد للبابا للوضع الذي تمر به حكومة المنظمة في طرابلس، وحاجتهم الماسة للمساعدات، واستعداد منظمته للدفاع عن طرابلس في حال دعمها ووصول المساعدات، إلا أن هذه المساعدات لم تأت لا من الإمبراطور ولا من البابا القلب المحرك لهذه المنظمة الحربية ومحرضها ضد الإسلام والمسلمين.[3]

وفي نفس هذه السنة 1547، توفى "خير الدين بربروسا" الذي أفزع الصليبيين في مياه وسواحل البحر المتوسط مدة طويلة، غير أن وفاة " بربروسا" لم تترك فراغاً كبيراً في المنطقة؛ إذ سرعان ما خلفه نائبه "درغوث ريس" الذي أصبح كابوساً لأسبانيا والإمبراطورية، فكان يظهر دون توقع على سواحل إيطاليا وأسبانيا و سواحل المغرب الإسلامي، ولكن هدفه الرئيسي بقي القضاء على قوة فرسان مالطا، وطردهم من طرابلس وكان يعرف أن بإمكانه الاعتماد على "مراد آغا" في تاجوراء لتحقيق هذا الهدف.[1]

وكنا قد تركنا "درغوث ريّس" عندما تمكن الأسبان بمؤازرة فرسان مالطا، من إعادة احتلال سوسة والمنستير، ثم المهدية سنة 1550، وكان قد غادر بعد اختراق حصار أسطول "أندريا دوريا" له في جزيرة جربة إلى عاصمة الخلافة الإسلامية بأستانبول، وأحاط حكومة الباب

---

[1] ابن غلبون، التذكار...، ص137.
[2] نقلاً عن: آنوري روسي، طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا، ترجمة خليفة التليسي، ط1، مؤسسة الثقافة الليبية (طرابلس،1969) ص67.
[3] محمد الهادى أبوعجيلة، المرجع السابق، ص63.
[1] جان كلود زليتر، المرجع السابق، ص153،154.

العالي بما أسفر عنه صراعه مع القوى الصليبية في منطقة المغرب الإسلامي والبحر المتوسط، وأوضح للسلطان إن إستيلاء أسبانيا على وهران وبجاية وتونس، وتمركز منظمة فرسان القديس يوحنا في مالطا، وسيطرتها على قلعة طرابلس، من شأن كل ذلك أن يجعل السيادة للقوى المسيحية على أغلب سواحل البحر المتوسط، وتهديد سلامة تنقل الأسطول العثماني في هذه المنطقة، واحتمال تحالف في المستقبل بين القوى الصليبية، يجدد إمكانية عودتهم إلى الشرق، واستعادة رودس وجزر اليونان وسواحل فلسطين.[2] ويبدو أن فكرة استرجاع طرابلس والمهدية كانت خطة عسكرية قد درست بالباب العالي على ضوء تقارير "درغوث ريّس" و"مراد آغا"، وأن الدولة العثمانية كانت مدركة تماماً للأوضاع الداخلية لبلدان المغرب، ولمرامي السياسة الصليبية في المنطقة، وأنه بناءاً على ذلك تقررت الحملة العثمانية على طرابلس.[3]

ظهر الأسطول العثماني أمام مالطا يوم 8 يوليو سنة 1551،[4] ثم أبحر إلى طرابلس التي وصلها في الخامس من أغسطس، وبدأت عملية الغزو في الثامن من أغسطس سنة 1551. وقد كان الأسطول العثماني مكوناً من حوالي 150 سفينة بقيادة "سنان باشا"،[5] بالإضافة إلى سفن "درغوث ريّس"، التي تقدرها بعض المصادر بخمسين سفينة،[6] وبعد أن تمت عملية إنزال الجنود في تاجوراء حيث مركز المقاومة المحلية بقيادة "مراد آغا" توجه "سنان باشا" و"درغوث ريّس" بالأسطول نحو مدينة طرابلس وأبرم الحصار عليها، ثم بعث "سنان باشا" برسالته إلى قائد الحامية المالطية "جيسبارد دي فالييرGaspard de Vallier "، يأمره بالتسليم، وقد كتب إليهم يقول: "استسلموا لرحمة السلطان الذي أمرني بإخضاع هذه البقعة تحت طاعته، ولسوف أمنحكم الحرية والحياة والممتلكات العائدة إليكم، وإلا فإنني سأمرركم جميعاً تحت حد السيف" وكان رد فاليير: "لقد عهد إلي بحراسة هذه البقعة من قبل منظمتي الدينية، ولست أملك أمر التخلي عنها إلا إلى ما يأمرني به المرشد الأكبر، وهذا هو السبب في أنني سأدافع عنها ضد الجميع حتى الموت".[1]

كانت خطة (سنان باشا) تقتضي التريث والاستعداد ومناوشة العدو من تاجوراء، وعدم تمكين مدافع القلعة من سفن الأسطول المحاصر لطرابلس، وبدأ تأثير الحصار البري والبحري يؤثر على معنويات جنود الاحتلال في القلعة، ووجد الحاكم (دي فالييرـ) – في اليوم السادس من الحصار- نفسه وقد خانه الحظ وتخلى عنه جنوده، فما كان منه إلا أن رفع راية المفاوضات[2]، وفي هذه الأثناء وصل السفير الفرنسي، دارمونت DARMONT إلى تاجوراء، وقد كان ماراً بجزيرة مالطا وهو في طريقه إلى قنصليته في أستانبول، حيث طلب إليه مرشد منظمة فرسان مالطا التدخل والقيام بدور الوسيط في إنقاذ فرسان الحامية بطرابلس، وانتهت المفاوضات إلى استسلام فرسان الحامية وخروجهم من طرابلس، بعد أن أذن لهم (سنان باشا) بالرحيل على ظهر سفينة تحمل العلم الفرنسي، في الثامن عشر من أغسطس سنة 1551.[3]. وفتحت القلعة والمدينة للجنود العثمانيين ومناصريهم

---

[2] كوستا نزيوبرنيا، المرجع السابق، ص40،41.
[3] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص77.
[4] ابن غلبون، المصدر السابق، ص127.
[5] المصدر نفسه، ص127.
[6] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص77.
[1] شارل فيرو، المصدر السابق، ص92؛ كوستانيزيو برينيا، المرجع السابق، ص43.
[2] عبدالجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص77.
[3] محمد الهادي أبوعجيلة، المرجع السابق، ص68.

الليبيين الذين طال نضالهم ضد الاحتلال الأسباني ومن بعدهم فرسان مالطا، واعتبر ذلك أول نجاح عسكري منظم قام به العثمانيون على الساحة المغربية، ثم أبحر الأسطول العثماني إلى الأستانة، بعد أن حقق هذا النصر الكبير، وبعد أن عهد (سنان باشا) بحكم إيالة طرابلس لـــ(مراد آغا)، تمكن العثمانيون من تأسيس القاعدة الثانية بعد إيالة الجزائر، على ساحل شمال أفريقيا الغربي، والتي منها سيستمر التصدي للقوات الأوروبية في هذه المنطقة، والتضييق على الوجود الأسباني في تونس حتى يتم استخلاصها، وتأسيس الإيالة المغربية الثالثة، وهذا ما سيتم استعراضه فيما يلي:-

- مراحل تأسيس إيالة تونس حتى سنة 1574:

كالجزائر وطرابلس، ونظراً لموقعها المهم، اكتسبت تونس أهمية خاصة في الصراع الأسباني العثماني بغرب البحر المتوسط، فتنازعت القوتان احتلال سواحلها أكثر من مرة.

ولقد سبقت الإشارة إلى استيلاء (خيرالدين بربروسا) على تونس سنة 1534، وما ترتب على ضمها للدولة العثمانية عندئذ من رد فعل سريع من قبل أوروبا تمثل في قيام الإمبراطور شارل الخامس بنفسه بقيادة الحملة التي أعاد بها الحسن الحفصي إلى عرش تونس، وفرض شروطه المذلة عليه سنة 1535.[4]

وما أن غادر الإمبراطور مدينة تونس حتى اندلعت الثورات ضد الحسن الذي لم يرتض الشعب التونسي حكمه تحت الحماية الأوروبية، فثارت عليه عدة مدن تونسية من بينها مدينة سوسة والقيروان، واستنجد "الحسن" مرة أخرى بشارل الخامس الذي كلف في سنة 1537 نائبه في صقلية بإرسال حملة لقمع المتمردين في مدينة سوسة وإخضاعها، إلا أن الأسبان فشلوا في حملتهم واضطروا إلى العودة بعد تكبد خسائر فادحة.[1]

وفي سنة 1539، تمكن أندريا دوريا من إخضاع مدن قليبية وسوسة وصفاقس لسلطة الحسن الحفصي، وعسكر حامية أسبانية في المنستير، بينما توجه الحسن بنفسه لقمع انتفاضة الشابيين في القيروان، فضم الحسن إلى قواته قوات الحامية الأسبانية، إلا أن معظم جنوده المسلمين انحازوا إلى الثوار مع بداية المعركة الأمر الذي اضطره إلى التقهقر إلى مدينة تونس، ومعه جنود حامية المنستير الذين صدوا عنه هجمات الثوار وغطوا انسحابه، وترتب على هذه الهزيمة تصاعد الثورة مما اضطر الأسبان إلى سحب حاميتهم من المنستير التي ثارت مجدداً ومعها مدن سوسة وصفاقس وقليبية وهذه المرة بمساندة الغازي الشهير "درغوث ريس" الذي أخذ في هذه الفترة بتركيز هجماته على السواحل التونسية.[2]

ومجمل القول فإن الأوضاع في تونس كانت في منتهى الصعوبة بالنسبة للحسن الحفصي، فبالرغم من تعدد الحملات الأوروبية لتأكيد سلطته على تونس وقمع الثورات المناهضة لحكمه، فإن أمره انتهى إلى تنحيته عن الحكم وأسره من قبل ابنه "أبي العباس أحمد" سنة 1542.[3]

---

[4] راجع ص (26) من هذا البحث.
[1] روسو، المصدر السابق، ص91،92.
[2] المصدر نفسه، ص92.
[3] أحمد بن أبي الضياف، إتحاف...، ج2، ص15.

وبتولي (أبي العباس أحمد)، أخذ الوجود العثماني يتسرب شيئاً فشيئاً إلى مداخل البلاد التونسية، وذلك على إثر تعاون "درغوث ريس" معه ضد الحاميات الأسبانية، إذ أنه انطلاقاً من سنة 1544، تمكن درغوث من تحرير معظم السواحل التونسية، هذا فضلاً على نجاح محاولاته لعرقلة حركة الأساطيل الأوروبية وضرب الموانئ الأسبانية والإيطالية، وهذا ما جعل شارل الخامس يعده أكثر خطورة من "خيرالدين بربروسا" والعمل على استرجاع المهدية ومحاصرته في جربة سنة 1551.

وباحتلال (أندريا دوريا) للمهدية واستفعال تقدم الأسبان بالأراضي التونسية وسواحل المغرب الإسلامي، تحتم على العثمانيين الرد السريع والذي تمثل في توجيه الأسطول العثماني لاسترجاع المهدية، ووضع حداً لوجود فرسان مالطا بطرابلس الغرب سنة 1551.[4]

وبعد تحرير طرابلس من سيطرة فرسان مالطا سنة 1551، استمرت القوى الصليبية في اختبار القوى المحلية والعثمانية المرابطة على سواحل بلدان المغرب، وخاصة في طرابلس، وكانت محاولاتهم بهدف الاستيلاء على بعض النقاط الهامة، وعرقلة الأسطول العثماني في المنطقة، ففي سنة 1552، حاول فرسان مالطا الاستيلاء على زوارة – غرب طرابلس- إلا أن قوات مراد آغا انقضَّت على قوات الفرسان الذين تشتتوا واضطروا لترك 1500 أسير من مواطني زوارة، بل إن القوات المحلية استطاعت أن تأسر عدداً من جنود فرسان مالطا، بينما هرب الباقين، وبعد أن غرق الكثير منهم قبل وصولهم إلى سفنهم، غادر الأسطول الغازي بمن بقي منهم على قيد الحياة.[1]

ومن خلال هذه التجربة أدرك فرسان مالطا أنهم لا قدرة لهم بمفردهم على إعادة احتلال طرابلس مرة ثانية، وفي الوقت نفسه تنبّه "مراد آغا" إلى الخطر الذي يحيق بطرابلس نتيجة وجود النفوذ الأسباني في تونس؛ إذ يستدعي استقرار الأوضاع في طرابلس وجود وضع مستقر في جارتها تونس، وكذلك يعني تحرير تونس امتداد النفوذ العثماني إلى الجزائر على ساحل شمال أفريقيا، ودحر القوى المسيحية المتربِّصة بطرابلس إلى الشاطئ الشمالي للبحر المتوسط من جديد، وهذا ما عمل على تحقيقه "درغوث باشا" بعدما تولى الحكم في إيالة طرابلس الغرب.

وبتولي (درغوث باشا) حكم طرابلس سنة 1553، بدأ من فوره في مباشرة مسئوليات الحكم في همة ونشاط، فداخلياً بدأ باستكمال تحصينات المدينة،[2] وخارجياً أتاح له المنصب الجديد أن يلعب دوراً في السياسة الدولية كالدور الذي لعبه "خيرالدين بربروسا" من قبل حين كان والياً على الجزائر، فتحولت طرابلس في عهده إلى قاعدة بحرية لصد الأطماع والاعتداءات الأوروبية على المغرب الإسلامي، وكانت تونس من ضمن اهتماماته منذ بداية ولايته، ولهذا فقد جمع بطرابلس بعض الأعيان والشيوخ من جربة وقفصة للعمل على وضع خطة لاحتواء المنطقة وضمِّها إلى طرابلس وإعلانها جزءاً من الإمبراطورية العثمانية.

بدأ "درغوث باشا" مشروع ضم تونس بالزحف على مدينة قفصة في 20 سبتمبر 1556، فاستقبله أهاليها كمحرر لها، ولتأكيد الوجود السياسي العثماني قام بضرب أول عملة عثمانية بها

---

[4] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص76.
[1] ابن غلبون، التذكار...، ص131.
[2] الطاهر أحمد الزاوي، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، ط1، دار الفتح للنشر (بيروت، 1970) ص156-157.

كانت تحمل على أحد وجهيها اسم السلطان العثماني "سليمان القانوني" والوجه الآخر عبارة "ضُرب بقفصة" ثم توجه بعد ذلك إلى جربة فاستولى عليها وأقام بها البرج الكبير للدفاع عنها، وترك على قيادته "قلج علي".[3]

وانطلاقاً من هذين الموقعين، أصبح من السهل على درغوث دخول صفاقس وبدأ بحصار الشابيين في القيروان إلى أن تم له القضاء على حكمهم سنة 1557.[4]

وهكذا تمكن درغوث باشا من مدِّ نفوذه في كامل الجنوب التونسي، وتقوية الحزام البري حول طرابلس وعلى السواحل التونسية، الأمر الذي جعل تحركه البحري في اتجاه السواحل الأوروبية، أكثر نجاحاً، إذ تُشير بعض المصادر إلى أنه في سنة (967هـ / 1559م) قد تمكنت البحرية الطرابلسية من إنقاذ حوالي 2500 مسلم من أسبانيا،[1] وكانت هذه الإنجازات بمؤازرة زيارات الأسطول العثماني الدورية للمنطقة، والتي كان الغرض منها تدعيم نشاط أساطيل الجهاد المغربية، والرفع من معنوياتها، والدفاع عن سلامة الأراضي الداخلة ضمن نفوذ الإمبراطورية العثمانية. فماذا كان موقف أوروبا من هذه النجاحات؟.[2]

- الحملة الصليبية على جربة 1560:

على إثر توقيع معاهدة "كاتوكمبريسيس Cateaucombresis"[3] - والتي حدت من التناقضات السياسية بين أسبانيا وفرنسا وإنجلترا بتاريخ 2 – 3 أبريل سنة 1559م - أصبح لهذه الدول غايات موحدة تقريباً. وأصبح باستطاعة أسبانيا تحويل اهتمامها إلى خطر التوسع العثماني والنشاط البحري المغربي. ففي رسالته إلى دوق فلورنسا يعبّر فيليب الثاني ملك أسبانيا عن ارتياحه لهذا الوفاق فيقول: "... برضاء من الله تمت هذه المعاهدة وإقامة السلم مع المسيحي الغيور الملك الفرنسي. فقد بدا لي أنه طاعة لله وخدمة للدين المسيحي، وحتى لا تبقى جميع السفن التي تحت إمرتي بإيطاليا عاطلة عن التحرك خلال هذا الصيف، فإننا سنستعملها للقضاء على القراصنة لنضمن الحرية البحرية... وعلى هذا الأساس فقد أذنت بالحملة على طرابلس الغرب...".[4]

إذن فالحملة التي احتلت جربة كانت موجهة أساساً إلى طرابلس، وهذا ما تعكسه الفقرة الأخيرة من الاقتباس السابق لرسالة فيليب الثاني، إلا أن قوة طرابلس في عهد درغوث باشا، فيما يبدو – أنها كانت من ضمن الأسباب التي حالت دون تمكن الحملة من غزوها، وتشير بعض

---

[3] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية....، ص79.
[4] أحمد النائب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ط2، مكتبة الفرجاني (طرابلس، د.ت) ص224.
[1] محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مكتبة الخازنجي (القاهرة، د.ت) ص388.
[2] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص80، 81.
[3] تعتبر هذه المعاهدة أول تسوية عامة أوروبية في تاريخ أوروبا الحديث، وقد وضعت نهاية لما يعرف بمصطلح "الحروب الإيطالية Les Guerresd'italie" وهي حروب متقطعة نشبت بين فرنسا وأسبانيا خلال فترة امتدت خمسة و ستين عاماً (1494 – 1559) وكانت هذه الحروب مظهراً من مظاهر التنافس الدولي بين هاتين الدولتين من أجل السيطرة والنفوذ في أوروبا والرغبة في التوسع الإقليمي داخل القارة، وكانت شبه الجزيرة الإيطالية ميداناً لتصارع الجيوش الفرنسية والأسبانية خلال المراحل الأولى لهذه الحروب التي تطورت بعد ذلك واتسع نطاقها إلى ميادين متعددة خارج شبه الجزيرة الإيطالية. انظر، عبد العزيز الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ج1، ط5، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1986) ص155، وكذلك ص183.
[4] نقلاً عن: عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية للصراع الأسباني العثماني...، ص13.

المصادر إلى تعرض أسطول الحملة لعواصف بحرية قرب سواحل طرابلس – بالقرب من زوارة – فاضطرت الحملة إلى التوجه نحو جربة.[5]

وتورد بعض المصادر الأوروبية أن سعي كلٌ من نائب الملك بصقلية، ومرشد منظمة فرسان مالطا لدى فيليب الثاني هو الذي كان وراء إقناع الأخير بتنظيم حملة بحرية مشتركة على طرابلس، وللقضاء على درغوث باشا، لمعرفتهم بقدراته العسكرية والبحرية والخطر الذي يشكله في المنطقة.

ومن غير الدخول في تفاصيل الحملة وتجهيزات السفن وذكر المراسلات التي تمت بين الملك الأسباني والقيادات الأوروبية المشاركة فيها، نقتصر على أن التحالف الأوروبي قد سخر إمكانيات كبيرة للقيام بهذه الحملة، وكان الجنود خليطاً من الدول المسيحية، ويقدرون بـ 12.000 إلى 14.000 ألف جندي نقلتهم حوالي 80 إلى 113 سفينة.[1]

وعلى كل حال استولت الحملة على جربة، وبعد شهرين تقريباً وصل الأسطول العثماني بقيادة "بيالي باشا" ومعه "قلج علي" الذي كان درغوث قد بعث به لطلب الدعم من الأسطول العثماني في الوقت الذي توجه فيه درغوث باشا إلى جزيرة جربة، وبوصول الأسطول العثماني تم فرض الحصار على أسطول دوريا وعلى الجزيرة في آن واحد.[2] وأسفرت المعركة عن هزيمة الأسطول الصليبي وفرار "جين دوريا Gian Andrea Doria" بما نجا من سفن أسطوله، تاركاً "ألفارودي ساندي Don Alvaro Desande" قائد الجيش البري في قلعة الجزيرة تحت رحمة العثمانيين والذي ضل متحصناً بها على أمل أن تصل إليه النجدة من مالطا أو صقلية، ولما يئس من ذلك أجرى عدة محاولات للهروب ولكن دون جدوى فوقع في الأسر واضطر رجاله للاستسلام فدخل العثمانيون القلعة في يوم 1 أغسطس 1560م.[3]

وهكذا أدت الحملة الصليبية على جربة إلى عكس المطلوب منها، لقد قصد بالحملة استعادة مدينة طرابلس، وكسر شوكة درغوث باشا ووقف المد العثماني في الشمال الأفريقي وتقوية مركز فرسان مالطا وإعطائهم مظهراً مشرفاً أمام أوروبا المسيحية، إلا أن شيئاً من ذلك لم يتحقق، ونتج عن الحملة نتائج مخالفة؛ فقد أضافت إلى أمجاد درغوث مجداً جديداً، فقد كان حذراً واعياً لما يدور حوله واستفاد من موقعه أكبر فائدة يمكن أن يحصل عليها قائداً في مثل موقعه، واستفاد من المعلومات التي كانت تصله عن طريق عملائه في تونس وحول قلعة حلق الوادي، واستعملها الاستعمال الأمثل، فأعادت الحملة إلى الأذهان انتصار درغوث على دوريا الكبير "حين أفلت من حصاره في جربة".[4] ومن ناحية أخرى فإن فشل الحملة والهزيمة التي حلت بالقوى المسيحية قد أدت إلى ازدياد النشاط العثماني سواء عن طريق طرابلس أو عن طريق الأسطول العثماني، وهو أمر سوف يظهر أثره في الحملة العثمانية على مالطا سنة 1565م، وهي الحملة التي شارك فيها درغوث باشا وشهدت عظمته العسكرية واستشهد فيها.

---

[5] روسو، المصدر السابق، ص95.
[1] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص82؛ روسو، المصدر السابق، ص94.
[2] محمد شاكر مشعل، المرجع السابق، ص59.
[3] آتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي...، ص225.
[4] محمد شاكر مشعل، المرجع السابق، ص60، 61.

- الحملة العثمانية على مالطا 1565م:

كان فرســـان "القديس يوحنا" قد تمركزوا في مالطا نهائياً بعد أن فقدوا الأمل – بعد العديد من المحاولات – في العودة إلى طرابلس أو أي نقطة على ساحل شمال أفريقيا ومن ثم فقد اشتغلوا بالغارات الخاطفة على السـواحل المغربية، أو بالهجمات على سـفن المسـلمين في البحر. وفي هذه الفترة تشير بعض المصـادر إلى استيلاء البحرية المالطية فيما استولوا عليه على "مركب" خاص بالسلطان القانوني نفسه، يعرف باسم "بيرام أو غلو" وعلى متنه ثروة كبيرة، وعدد من الشخصيات الهامة، كذلك تمكنت بحرية المنظمة من الاسـتيلاء على سـبع سـفن عثمانية من بينها مركب تعود ملكيته إلى "رستم باشا" صهر السلطان.[1]

وإذا ما أضفنا ما سبق إلى أهمية جزيرة مالطا كقاعدة بحرية ذات تأثير مباشر على حرية التنقل في البحر المتوسط، وإشرافها على ساحله الجنوبي واعتداءات المنظمة على السفن والسواحل المغربية، وتحريض درغوث باشا للحد من عدوان هذه المنظمة المهدد للاستقرار في طرابلس، ينتج عن كل ذلك التحرك العثماني وقرار الحملة العثمانية على مالطا.

عهد الباب العالي بمهمة قيادة أسطول الحملة إلى "مصطفى بيالي باشا" وتقرر أن يلحق به درغوث باشا من طرابلس وحسن باشا من الجزائر بما لديها من سفن وجنود بالإضافة إلى فرقة من الإسكندرية بقيادة "قلج علي باشا"، واختلفت المصادر حول عدد السفن المتراوح بين 150 و 200 قطعة بحرية، أما عدد جنودها فيتراوح بين 30 و 50 ألف، وقد وصـــلت الحملة إلى جزيرة مالطا يوم 18 مايو 1565م.[2]

كان لجزيرة مالطا عدة قلاع محصـنة وهي: حصـن (سـان المو)، و(سـان ميكال)، و(سـان أنجلو)، و(برقو)، وكان يدافع عنها حوالي 9.000 جندي بقيادة "لافاليت" وكان يحيط بهذه القلاع عدة تلال، تعيّن على القوات العثمانية السيطرة عليها حتى يتم السيطرة على كامل الجزيرة، وهذا ما لم يتم لاســـتماتة قوات الجزيرة في مقاومة الهجمات العثمانية المشـــتتة، فلم يكن للعثمانيين خطة هجومية موحدة حيث اختلف القادة على أولويات المعركة، ففي حين كان درغوث يطالب باحتلال التلال المشرفة على الحصون، كان قائد الأسطول "مصطفى باشا" قد ركزّ هجومه على (سان المو) لضمان مرور الأسطول العثماني إلى الميناء الرئيسي.[1]

وأخذ الأسطول العثماني بقذف الحصون، وكان المقاومون يردون على القصف بالمثل، ولأكثر من شهر استمات الفرسان في الدفاع عن أهم حصن مسيحي في البحر المتوسط.

ولما كان الهجوم مركّزاً على حصن (سان المو) لاحظ "درغوث باشا" كيف كان "لافاليت" يجد الفرصـة لإرسـال الدعم إلى الحصـن عقب كل هجمة عثمانية، وكان من الضـروري أن يقطع عليه الطريق، ودون تردد أنزل "درغوث باشا" بحّارته وجنوده في الجبهة المقابلة للحصن، وسيطر

---

[1] كوستانيزيوبرينا، المرجع السابق، ص68.
[2] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص87.
[1] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص88.

على الموقع، وبالمقابل أدرك "لافاليت" أهمية هذه الحركة من قبل درغوث فقام بإرسال قوة تتكون من 700 جندي، لاسترداد هذا الموقع المهم، وفي اليوم التالي وبينما كان "ردرغوث باشا" يقود جنوده، تحت نيران مدافع القلاع ويراقب بنفسه سير المعركة، أصابته شظية مدفعية أدت إلى استشهاده.[2] وفقدت البحرية العثمانية"في شخص والي طرابلس أعظم رجل حربي، يمكن أن تعده بين رجالها الذين ظهروا خلال قرنين، أو كثر".[3]

ومن دون جدوى استمر حصار العثمانيين لحصون الجزيرة، وازداد وضع العثمانيين سوءًا خاصة بعد وصول النجدات المسيحية للجزيرة، والتي ترتب عليها إنعاش المقاومة الداخلية من جديد ضد الغزاة العثمانيين الذين فضلوا الانسحاب في اليوم السابع من شهر سبتمبر 1565.[4]

ولقد تكبدت القوات العثمانية في حصارها للجزيرة خسائر فادحة،[5] أدت إلى اعتبار نتيجة المعركة نصر عسكري مسيحي هز الدوائر السياسية والدينية في كل أوروبا، فقد استعصت جزيرة مالطا على العثمانيين وبقيت حتى سنة 1798 إحدى أهم المراكز الرئيسية في البحر المتوسط التي تنطلق منه هجمات فرسان مالطا وغيرهم من الصليبيين على سواحل شمال أفريقيا والسفن الإسلامية في البحر المتوسط.[6]

وبعد هزيمة العثمانيين في مالطا، استمرت تونس مسرحاً للصراع الأسباني العثماني واستمر سكان تونس وزعماتها المتمثلة في قيادات الطرق الصوفية وشيوخ القبائل في كفاحهم للوجود الأسباني.[1]

وإذا كان "درغوث باشا" لم يحقق سوى نجاح جزئي في تونس، فإن إيالة الجزائر بقيادة "قلج علي باشا" أتمت ما بدأته طرابلس في سبيل تخليص تلك البقعة من السيطرة الأجنبية، ففي سنة 1569 توفر "لقلج علي" فرصتين لا يمكن تفويتها لضم شمال تونس تحت المظلة العثمانية، تمثلت الأولى: في انشغال أسبانيا بأحداث ثورة مسلمي غرناطة التي اندلعت مع نهاية سنة 1568 واستمرت حتى سنة 1570؛[2] والثانية في لجوء الوزير التونسي "أبي الطيب الخضار" إلى الجزائر والذي سهل علي "قلج علي" أمر الاستيلاء على تونس بما وفرّه له من معلومات عن الأوضاع السياسية والاقتصادية وعن قوات الحامية الأسبانية في قلعة حلق الوادي.[3]

---

[2] عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية (بيروت، 1989) ص218.

[3] كوستانزيوبرينا، المرجع السابق، ص72.

[4] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص89.

[5] وصلت خسائر العثمانيين – حسب بعض المصادر – إلى 20.000 قتيل، ويوصل "برينيا" خسائرهم إلى 35.000 من غير ما قدمته الإيالات المغربية، ووصلت خسائر المنظمة إلى 600 قتيل من الفرسان، وأسر العثمانيون 9.000 من الإيطاليين والمتطوعين المحليين. انظر كوستانزيوبرينا،المرجع السابق، ص73، كذلك عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص89.

[6] ن. إ. بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ترجمة وتقديم: عماد حاتم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس، 1991) ص36.

[1] ن. إ. بروشين، المرجع السابق، ص36، 37.

[2] عن هذه الثورة وعلاقات مسلمي الأندلس بإيالات المغرب والدولة العثمانية في هذه الفترة، انظر، محمد رزوق، الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 – 17، مطابع أفريقيا الشرق (الدار البيضاء، 1989) ص80 – 92؛ جلال يحيى، المرجع السابق، ص166؛ عبد الجليل التميمي، "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541" المجلة التاريخية المغربية، العدد 30 (تونس، 1975).

[3] أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف...، ج2، ص18.

وبناءًا على ذلك تحرك "قلج علي باشا" من الجزائر إلى تونس في ستة آلاف مقاتل أنضم إليهم في طريق الحملة خمسة آلاف من بادية الجزائر والسكان المحليين الذين يرون النجاة في نصرة إخوانهم المسلمين من سيطرة الأسبان، وخرج السلطان "أبي العباس أحمد الحفصي" في 30.000 لملاقاة جيوش "قلج علي"، وبعد أول اشتباك عند سهول "باجة" انحاز الجنود التونسيون الذين برفقة "أحمد الحفصي" إلى صف "قلج علي باشا" وأسفرت المعركة عن هزيمة الأول والذي اضطر إلى اللجوء إلى قلعة "حلق الوادي" الأسبانية، ودخل "قلج علي باشا"، حاضرة تونس سنة سبع وسبعين وتسعمائة (977هـ - 1569م).[4]

وبعد أخذ البيعة للسلطان العثماني في تونس، خلفّ "قلج علي" أحد قواته ويدعى "رمضان" مع 800 تركي وحوالي ألف من قوات بادية زواوة الجزائريين.[5] وقفل عائداً إلى الجزائر بهدف تنظيم الأسطول وإعداده لمهاجمة قلعة حلق الوادي، إذ أن الاستيلاء على هذا الحصن المتحكم في الميناء، بدون دعم من البحر كان فيما يبدو أمراً مستحيلاً.[1] وضلت سيطرة الأسبان على الميناء من قلعة حلق الوادي دائماً تهدد سلامة البلاد.

إلا أن عودة "قلج علي باشا" إلى تونس لاستكمال مشروع تحريرها من الأسبان. أرجئت إلى وقت لاحق، إذ بمجرد وصول قلج علي إلى الجزائر تم استدعاؤه من قبل الباب العالي، للتنسيق مع الإدارة العثمانية ووضع التدابير للوقوف في وجه التكتل الصليبي ضد العثمانيين.

- الحلفاء ومعركة ليبانتي سنة 1571م:

وقد شكلت هذه الرابطة الصليبية سنة 1570، بمبادرة من البابا "بيوس الخامس" الذي لجأ إليه دوق البندقية، على إثر استيلاء الدولة العثمانية على جزيرة "قبرص" – التابعة لجمهورية البندقية – وكان استيلاء العثمانيين على الجزيرة، في 9 سبتمبر 1570م، بسبب انتهاكاتها المتكررة لحدود الدولة العثمانية. وهجمات بحّارتها على السفن العثمانية "فالقبارصة بدأوا يتصرفون مثل فرسان مالطا"[2] وعلى إثر ذلك أعلنت حكومة البندقية الاستنفار وبدأت بتسليح سفنها التجارية وأطلقت حملة سياسية "لإثارة المسيحية المهددة".[3]

ولقد وجدت حكومة البندقية في البابا "بيوس الخامس"، الموحد الروحي للمسيحيين، الشخصية المناسبة، فقد كان هذا "البابا" يؤمن بأن للمسيحية عدوان اثنان، إحداهما: المروق عن الدين، وثانيهما: خطر العثمانيين المسلمين، وبالرغم من التناقضات وتضارب المصالح الذي كان يسود علاقات الدول الأوروبية – وخاصة بين أسبانيا وفرنسا والبندقية، فقد وفق "البابا" خلال أسابيع في أن يجعل جميع الأطراف تتفق على مبادئ وقاعدة مشتركة للعمل ضد العثمانيين، وتوصلوا في النهاية إلى عقد ذلك التحالف وهو تحالف هجومي - دفاعي وموجه بالدرجة الأولى

---

[4] أحمد بن أبي الضياف، إتحاف...، ج2، ص19؛ روسو، المصدر السابق، ص96؛ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص173.
[5] روسو، المصدر السابق، ص96.
[1] ن. إ. بروشين، المرجع السابق، ص37.
[2] عزيز سامح، المرجع السابق، ص226.
[3] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص97.

ضد الإمبراطورية العثمانية، وأصرت أسبانيا على ضرورة النص فيه على أنه موجه كذلك ضد إيالات المغرب في شمال أفريقيا.[4]

ونصت بنود الحلف على ضرورة توفير أسطول بحري يتكون من 200 سفينة حربية و 100 سفينة نقل لحمل 50.000 جندي و 4.500 من الفرسان، وأن تستمر فاعلية هذا الحلف (المقدس) لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات، ولا يحق لأحد من الأطراف الأوروبية التفاوض بشكل منفرد مع الدولة العثمانية، وعلى ذلك أُعلن عن وجود الحلف رسمياً يوم 25 مايو 1571م من شرفة كنيسة (القديس بطرس) في روما.[1]

وأخذت الدول المتحالفة في الاستعداد وفي تجميع سفن أسطولها، ومن طرف الدولة العثمانية دخل الباب العالي في دوامة الاستعداد للمواجهة بإعداد السفن والتنسيق مع الولايات وتجمع الأستانبول العثماني من أستانبول ومن قبرص، ومن المغرب الإسلامي، وتراوح عدد قطعة ما بين 180 و 200 سفينة حسب المؤرخون العثمانيون، خلافاً للمصادر الغربية التي ذكرت أنه يتكون من 230 إلى 300 قطعة بحرية،[2] وقد انطلق الأسطول العثماني من ميناء أستانبول في ربيع سنة 979هـ / 1571م،[3] ليجوب خلال عدة أشهر السواحل الشرقية وليعيث في بعضها، وقد أدى خروج الأسطول المبكر إلى استنفاذ طاقة الجيش بسبب الملل والإعياء بعد طول انتظار وتحرك مستمر وتوقع هجوم أسطول الحلفاء. وهذا بينما تحرك الأخير متأخراً من ميناء "مسينا" في إيطاليا بتاريخ 16 سبتمبر بقيادة "الدوق خوان النمساوي"[4] ومتكوناً من 208 سفينة.[5] وفي يوم 17 أكتوبر 1571، فاجأ أسطول الحلفاء الأسطول العثماني عند خليج ليبانتي (LEPANTE غربي اليونان) وتمكن من قطع الطريق عليه ومن إلحاق هزيمة كبيرة بالأسطول العثماني، فلم ينجُ من الأسطول العثماني إلا الثلاثون سفينة التي كانت تحت قيادة "قلج علي باشا"، وبلغت خسائر العثمانيين - حسب بعض المصادر – 30.000 قتيل و 3.000 أسير، كما تمكن الحلفاء من تحرير 15.000 من الأسرى الأوروبيون الذين جندوا للتجديف على سفن الأسطول العثماني؛ أما خسائر قوات التحالف فوصلت إلى 8.000 قتيل و 21.000 جريح وفقدوا عشرة سفن من أسطولهم.[6] والسؤال هنا ماذا ترتب على هزيمة العثمانيين في موقعة ليبانتي البحرية ؟

لقد تضاربت الدراسات، وآراء المؤرخون في أمر تقيّم موقعة ليبانتي، فذكر البعض أنها لم تؤدّ إلى نتائج حاسمة، بينما ذكر البعض الآخر أنها أدت إلى نتائج ضخمة، وعلى أي حال، فإن الصراع في البحر المتوسط لم يحسم في موقعة ليبانتي، ولعل أهم ما أدت إليه هزيمة الأسطول العثماني، عدم تمكنه من تقديم المساعدة لبقايا المسلمين المضطهدين في أسبانيا.[1] ومن جهة أخرى

---

[4] جلال يحيى، المرجع السابق، ص175.
[1] جلال يحيى، المرجع السابق، ص173، 174.
[2] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص99.
[3] عزيز سامح، المرجع السابق، ص230.
[4] يرد في بعض المصادر باسم "دوان جون درتريش" (D. Juand' Autriche) وهو ابن غير شرعي للإمبراطور شارل الخامس، ولد سنة 1545، أراد أخوه الملك فيليب الثاني، أن يدخله سلك الرهبنة، فرفض، فعينه قائد أعلى أحد جيوشه، وفي سنة 1570، أوكل إليه مهمة قمع ثورة مسلمي غرناطة (1568 – 1570). روسو، المصدر السابق، ص97.
[5] جلال يحيى، المرجع السابق، ص175.
[6] المرجع نفسه، ص176.
[1] جلال يحيى، المرجع السابق، ص176.

وعلى المدى البعيد، فإن نكسة الأسطول العثماني في ليبانتي كانت ذات تأثير محدود من الناحية الاستراتيجية العسكرية، فلم يتم القضاء تماماً على قوات الإمبراطورية العثمانية ذات الإشراف الواسع على أوسع منطقة جغرافية بامتدادتها القارية البحرية والبرية، فقد كان لديها القدرة – مع أقاليمها وولايتها العديدة – على تجديد أسطولها،[2] و سيؤيد تخليص تونس – من السيطرة الإسبانية نهائياً – ذلك كما سنرى.

بعد انهيار رابطة الحلفاء إثر موت "البابا بيوس الخامس" سنة 1572، وإبرام البندقية معاهدة سنة 1573 مع الدولة العثمانية، والتي دفعت فيها نضير ما أقدمت عليه،[3] استمرت أسبانيا في حربها مع الدولة العثمانية بعودتها إلى سياستها التقليدية تجاه الإيالات المغربية.

ففي يوم 7 أكتوبر 1573 – وهو تاريخ الذكرى الثانية لموقعة ليبانتي – انطلق الأسطول الأسباني بقيادة "دون جوان" من ميناء مسينا – في صقلية – ووصل مساء اليوم التالي أمام قلعة حلق الوادي، وتكونت قوات الحملة من 13.000 إيطالي و 9.000 أسباني، و 5.000 ألماني على متن 107 سفينة حربية، بالإضافة إلى 30 سفينة نقل ذخائر وعدد من سفن التموين، وفي يوم 9 أكتوبر، بدأت عملية إنزال القوات في حلق الوادي، وفي اليوم التالي بدأ الزحف على مدينة تونس، وتم احتلالها دون مقاومة، إذ انسحبت قوات الحامية العثمانية إلى القيروان بانتظار الإمدادات،[4] وبعد أن عاثت الجيوش المسيحية بالبلاد التي هجرها أهلها إلى الضواحي،[5] عقد "دون جوان" المجلس العسكري للحملة، وتقرر حكم المدينة باسم الملك الأسباني، وأختير لحكم تونس "الكونت دي سير باللون"، وهو أحد كبار ضباط الحملة، وذلك بمشاركة محمد بن الحسن المسعود الحفصي – وهو أخو أبو العباس أحمد الحفصي، الذي عاد إلى تونس مع الحملة الأسبانية ولكنه رفض الحكم بحسب الشروط الأسبانية.[6] وبعد ذلك ترك "دون جوان" في حامية مدينة تونس (8000) جندي، بالإضافة إلى (1000) جندي في قلعة "حلق الوادي" وغادر إلى "بنزرت" حيث تم الاستيلاء عليها في 25 أكتوبر، ليغادرها في يوم 2 نوفمبر متوجهاً إلى صقلية.[1]

وبعد انقضاء خريف 1573م، وشتاء 1574م وقرب فصل الربيع – وهو فصل إبحار الأسطول العثماني إلى البحر المتوسط – تواترت الأنباء بقرب وصول العثمانيين لاسترجاع تونس،[2] إذ أن الباب العالي كان قد بدأ بالتنسيق لهذه الحملة ذات الأبعاد الخطيرة على مستقبل وحدة الإيالات المغربية العثمانية الإسلامية، ذلك أن بقاء الحاميات الأسبانية في تونس سوف يمكنهم

---

[2] المرجع نفسه، ص177.

[3] المرجع نفسه، ص178.

[4] روسو، المصدر السابق، ص97.

[5] عن تعدّيات جيوش الحملة في مدينة تونس يقول ابن أبي دينار: "وأهين المسجد الأعظم (جامع الزيتونة) ونهبت خزائن الكتب التي به، ودرست بأرجل الكفرة معالم المدارس وتفرق ما جمع بها من دواوين العلوم ... وربط النصارى خيولهم بالجامع الأعظم..."؛ المؤنس، ص175، 176. ويقول الوزير السراج:" وألقيت تصانيف الدين بالأزقة تدوسها حوافر الخيل والرجال... وضُربت النواقيس وربطوا الخيل بالجامع الأعظم...". الحلل السندسية، ص1104، 1105. ويعقّب، ابن أبي الضياف، على إتلاف مكتبة جامع الزيتونة، قائلاً: "وهذا هو السبب في قلة تآليف الفحول من هذا القطر، فإنها ضاعت شذر مذر في هذه الواقعة". إتحاف أهل الزمان...، ج2، ص21. انظر روسو، المصدر السابق، ص98.

[6] أحمد بن أبي الضيّاف، المصدر السابق، ج2، ص21؛ روسو، المصدر السابق، ص98.

[1] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص104.

[2] عزيز سامح، المرجع السابق، ص245، 246.

شـيئاً فشـيئاً من ضـرب نفوذ العثمانيين في المنطقة، وإحلالهم محلهم، أما إذا وفق العثمانيون في القضـاء وبشـكل نهائي على الحاميات الأسـبانية في تونس، فسـيؤدي ذلك إلى تثبيت أركان الإيالات المغربية والحفاظ على مميزاتها الخاصـة ضـمن تبعيتها للإمبراطورية العثمانية وهذا ما سـوف يتم بالفعل.[3]

- الحملة العثمانية وتخليص تونس من الاحتلال الأسباني سنة 1574م:

كانت الأوامر قد صـدرت من الباب العالي إلى الحكّام العثمانيين في أقاليم البحر المتوسـط، تطالبهم بالاستعداد والتهيؤ للحملة المقررة على تونس مع بداية موسم الإبحار أوائل محرم من سنة 982هـ.[4]

وأُحيط حيدر باشا في القيروان وكذلك حكّام إيالتي طرابلس والجزائر بقرار السلطان سليم الثاني: "لقد جهزنا لفتح حلق الوادي اللعينة، التي سببت الاحتكاك والفساد في الولاية والتابعة حالياً لأسـبانيا، جهزنا لتسـخيرها 300 من المراكب، شـبيهة بالكواكب... وعدداً وافراً من الجنود، وسيتوجهون في أوائل محرم من السنة المقبلة، وحالما يصلكم أسطولي المنصور، تكونون ورمضان باشـا الذي هو أمير أمراء جزائر الغرب، ومصـطفى باشـا أمير أمراء طرابلس، وأحمد عرب باشـا أمير أمراء جزائر الغرب سـابقاً وأنت على قلب واتجاه واحد فترجعون وتنظرون أيها أنسـب، محاصرة حلق الوادي أو حصار البستون...".[5]

وتشـير بعض المصـادر إلى أن الأسـطول العثماني الموجه لاسـتعادة تونس كان يتكون من 300 سفينة تحمل حوالي 40.000 مقاتل ولقد كان هذا الأسطول الضخم بقيادة الوزير (سنان باشا) و(قلج علي باشا) الذي تولى القيادة البرية فور وصول الأسطول إلى سواحل تونس في يوم 11 – 7 – 1574م، وبعد قتال عنيف دام حوالي 6 أسـابيع تم القضـاء نهائياً على قلعة حلق الوادي الأسـبانية التي سـقطت بتاريخ 25 – 8 – 1574م.[1] ثم تحول العثمانيون إلى مدينة تونس، التي كانت في الوقت نفسه قد تم محاصرتها من قبل جيش طرابلس بقيادة والي طرابلس (مصطفى باشا) وجيش القيروان بقيادة حيدر باشـا، وانضـم إلى الجيشـين كذلك جيش مصـري تحت قيادة (إبراهيم بك)، وجيش عثماني من قبرص تحت قيادة (محمود بك) وأحكمت هذه الجيوش حصـار ها مع الأسطول على قلعة تونس التي سقطت في يوم 13 – 9 – 1574م.[2]

---

[3] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص105.

[4] عزيز سامح، المرجع السابق، ص246.

[5] نقلاً عن عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص105؛ البستيون: القلعة الثانية التي أنشأها الأسبان مؤخراً في مدينة تونس.

[1] عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص106.

[2] عزيز سـامح، المرجع السـابق، ص246؛ وأما أحمد بن أبي الضـياف، فذكر أن تاريخ خروج الأسـطول من أسـتانبول في: "غرة أشـرف الربيعيين سنة أحد وثمانين وتسعمائة (981هـ - 1573م)" ووصـوله إلى تونس "في الرابع والعشـرين من الشـهر" [ربيع الثاني] وسـقوط قلعة حلق الوادي "لست خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة (981هـ - 1573م)" وسقوط حصن البسيتون في مدينة تونس في "يوم الخميس لخمس بقين من جمادى الأولى سـنة إحدى وثمانين وتسـعمائة (981هـ - 1573م)". أحمد بن أبي الضـياف، المصـدر السـابق، ج2، ص23، 24.

وهكذا أدخل هذا النصـــر إقليم تونس في نطاق الدولة الإســـلامية الموحدة، تحت قيادة الإمبراطورية العثمانية، وفي خضم هذه الكارثة التي حلت بالنصارى في تونس، أُسر الأمير محمد بن الحسن المسعود، وانتهت بأسره الدولة الحفصية (603هـ - 981هـ)[3] وكذلك وقع في الأسر (الكونت سير بالليون) والذي تم افتداؤه من قبل بلاط روما بعدد من الأسرى المسلمين المعتقلين بروما، وكان من بينهم ابن (قلج علي باشا) الذي أُسر في معركة ليبانتي.[4]

وقبل عودة سنان باشا إلى الإستانة، عمل على تنظيم إدارة البلاد وحكومتها، على نمط ما تم إجراؤه في إيالات مصـــر والجزائر وطرابلس، فتم الإبقاء على قوة عثمانية بلغ تعداد ها 4000 جندي، مقســـمين إلى 40 فرقة وعُين على رأس كل منها قائداً منح لقب "داي"، وتم تعيين قاضٍ لإجراء الأحكام الشـــرعية بين الناس، وأُنشـــئ الديوان وقد اقتبس نظامه من ديوان مصـــر وديوان الجزائر، وتم تعيين "أمير لواء" لضـــبط الأوطان وتقرير رعاياها واســـتجلاب جباياها"[5] ووقع اختيار (سنان باشا) على عامل القيروان سابقاً (حيدر باشا) لشغل هذا المنصب.[6] وبهذا أصبحت تونس باشـــوية وانجلى عليها الاحتلال الأســـباني، واضـــطر (فيليب الثاني) - الذي تمر خزينته بصعوبات مالية، وانشغلت حكومته بثورات الأراضي المنخفضة، وتحركات الإنجليز والفرنسيين في إيطاليا - إلى أن يصرف النظر عن محاولة الانتقام لما حدث في تونس، ثم ليوافق بعد ذلك على عقد هدنة مع الدولة العثمانية سنة 1581، واحتفظت أسبانيا بمواقعها في "مليلة والمرسى الكبير ووهران" وخرج المغرب العربي من هذا الصراع وقد أخذ شكله الحديث، والذي يشتمل على ثلاث وحدات وهي طرابلس وتونس والجزائر؛ علاوة على المغرب الأقصى في أقصى الغرب.[1]

وهكذا تأسس في شمال أفريقيا ما أطلق عليه العثمانيون في البداية اسم (أوجاقات الغرب)[2] ثم الإيالات المغربية. وهي حسب تاريخ تأسيسها الجزائر (1518)، فطرابلس الغرب (1551)، فتونس (73-1574).

وبدخول إقليم تونس في نطاق الإمبراطورية العثمانية، امتدت هذه الأخيرة، فشـــملت جميع أنحاء الوطن العربي عدا مراكش في أقصى المغرب، وكان لهذا الامتداد أثره السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فقد قســـم العثمانيون البلاد العربية إلى مجموعة من الإيلات بلغ عددها "أربعة عشـــر إيالة" ضمنها إيالات المغرب الثلاثة، وقد تشابهت هذه الإيالات في أنظمة حكمها، فقد كان يحكم كلٌ

---

[3] أحمد بن أبي الضيّاف، المصدر السابق، ج2، ص25.

[4] روسو، المصدر السابق، ص104.

[5] حسين خوجة، نيل بشائر أهل الإيمان بفتوح آل عثمان، تحقيق: طاهر المعموري، الدار العربية للكتاب (ليبيا – تونس، 1975) ص88، 89.

[6] روسو، المصدر السابق، ص105.

[1] جلال يحيى، المرجع السابق، ص182.

[2] حســـب المؤرخ التركي أرجمند كوران: رأى الباب العالي أنه من المناســـب لتأمين وحدة الإمبراطورية العثمانية! أن يفصـــل بين إدارة أوجاقات الغرب بتعيين ولاة مستقلين لكل من الأوجاقات الثلاث لمدة ثلاث سنوات. وكان ذلك بعد وفاة قلج علي باشا سنة 1587، الذي تقلد بعد معركة ليبانتي حتى تاريخ وفاته منصـــب "القائد العام للأسـطول العثماني"، وكانت الأوجاقات الثلاث تابعة لوزير البحرية أو (القائد العام للأسـطول العثماني). وبذا منع الباب العالي أن تكون إدارة الأوجاقات الثلاث بيد شـخص واحد ولمدة طويلة. إلا أن النتيجة جاءت عكسـية، إذ ضـعفت روابط الأوجاقات بالدولة العثمانية، ذلك أن الباشـوات المولّين لمدة ثلاث سـنوات لم يكن همهم إلا جمع الثروات خلال هذه المدة قبل عودتهم إلى اسـتنبول. وترتب على فسـادهم أن انتقلت إدارة الإيالات إلى جند الانكشـارية الذين اكتسـب ديوانهم قوة ونفوذاً، وصـار الباشـاوات موظفين فقط برئاسـة الاحتفالات الرسـمية وبعقد المعاهدات. انظر: أرجمند كوران، السـياسـة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسـي للجزائر (1827-1847)، ترجمة: عبدالجليل التميمي، ط2، الشركة التونسية لفنون الرسم، (تونس، 1974) ص14.

منها والٍ "باشا" يتم تعينه لمدة ثلاث سنوات بمرسوم من قبل السلطان العثماني.[3] ولقد جرت العادة أيضاً بالإضافة إلى مرسوم تعيين الوالي في الإيالات العثمانية، أن يصدر الباب العالي "فرماناً" بتعيين كبار الموظفين في المناصب القيادية في الإيالة، مثل "قاضي القضاة"، والدفتر دار[4] وقادة الفرق العسكرية التي ترابط في الإيالة، ويشكل هؤلاء مع الباشا وكبار العلماء والوجهاء ديواناً استشارياً يساعد الباشا في شؤون الحكم والإدارة.[5] وكان الباب العالي يحرص على الاعتراف بالسيادة العثمانية على الإيالات، وعلى أن ترسل له الجبايا السنوية، وعلى أن يذكر اسم السلطان مقروناً بالدعاء له على المنابر، وعلى أن تسك العملة باسمه، وعلى أن ترابط في الإيالات بعض الفرق العسكرية العثمانية (يُطلق عليها اسم الأوجاقات) وهي حاميات عسكرية مهمتها التصدي للأخطار الخارجية، والحفاظ على الأمن الداخلي.[1]

غير أن هذا النظام لم يستمر طويلاً في الإيالات المغربية، فقد أخذ أفراد الحاميات العسكرية (فرق الانكشارية[2]) يستبدون بالوالي، حتى أصبح لا يعقد أمراً إلا من خلال هذه الفئة، إلى أن انتهى الأمر إلى سيطرتها الكاملة، باختيار أحد أفرادها لحكم البلاد، وتبع هذا النظام العسكري الاستبداد والظلم وإرهاق الشعب، الذي يعاني في الوقت نفسه، فتك الفقر والجهل والأوبئة. وقد كانت هذه المساوئ هي الهموم المشتركة للإيلات المغربية بصورة عامة آنئذٍ، فما يقع في طرابلس يعاد مثله في تونس أو الجزائر.[3]

ولقد كانت الجزائر في عهد (البايلربايات)[4]، شبه عاصمه للإيلات المغربية، ولذلك كان ممثل الدولة العثمانية في الجزائر يحمل لقب (بايلرباي - أي رئيس البايات)، ولكن هذا الإ شراف لم يستمر طويلاً، فقد انفصلت تونس عن تبعيتها للجزائر سنة 1590 على إثر ثورة عسكرية فرضت

---

[3] حسين خوجه، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوح آل عثمان، تحقيق: طاهر المعموري، الدار العربية للكتاب (ليبيا – تونس) ص23.

[4] رئيس إحدى المؤسسات العثمانية الهامة التي تعنى بالشؤون المالية (حساب واردات ومصروفات الدولة) تسمى (الدفترداراية).

[5] عبدالعزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ....، ج2 ، ص945 .

[1] عبدالعزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ....، ج2، ص945.

[2] الإنكشارية أو النيكشايرية أو الإنكشايرية: وهي كلمات محرفة عن أصلها التركي "يني كشاري = YENICERY" ومعناها "الجيش الجديد" وهو جيش أنشئ في عهد السلطان العثماني أورخان عام (1326) إلى أن أصبح عماد الدولة في غزواتها وفتوحاتها العديدة في البر والبحر، واستمر على ذلك إلى أن ظهر فيه العسف والجور، وخرج أكثر ضباطه وقادته عن حدود اللباقة والأدب، فكان له نفس الدور في الانتصارات التي أحرزها العثمانيون وكذلك في تخريب الدولة وانهيارها بعد تدخلات قادته و ضباطه في شؤون الدولة، واستطاع السلطان محمود الثاني القضاء عليهم وحل هذا الجيش سنة 1826. انظر: عبدالعزيز الشناوي، الدولة العثمانية...، ج1، ص471-558. وكذلك: عبدالرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، المطبعة العربية (الجزائر، 1955)، ص284.

[3] أمحمد سعيد الطويل، البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرمانلي (1795-1832) دار الكتاب الجديد المتحدة (بيروت، 2002) ص45، 46.

[4] مر الحكم العثماني في الجزائر بأربعة مراحل متتالية طبقاً لعهود أنظمة الحكم:

- المرحلة الأولى، وتعرف بعصر البايلربايات أو البكوبكوات، وتمتد من عام 1518 حتى عام 1587.
- المرحلة الثانية، وتعرف بعصر الباشوات، وتمتد من عام 1587 حتى عام 1659.
- المرحلة الثالثة، وتعرف بعصر الأغاوات، وتمتد من عام 1659 حتى عام 1671.
- المرحلة الرابعة، وتعرف بعصر الدايات، وتمتد من عام 1671 حتى عام 1830. انظر يحيى بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر، د.ت) ص261؛ صلاح العقاد، دراسات في تاريخ المغرب الحديث...، ص33.

أحد أفراد الانكشارية حاكماً للإيالة أطلق عليه اسم "الداي"،[1] وكذلك انفصلت طرابلس الغرب سنة 1603،[2] وأصبح يحكم كلٌ منهما حاكماً يتصل بالآستانة مباشرةً.

على أن تبعية هذه الإيالات المغربية لحكومة الأستانة لم تكن تبعية مباشرة بالمعنى الدقيق، فقد تمتع حكام الإيالات بصلاحيات واسعة داخل إيلاتهم، وحتى على صعيد العلاقات الخارجية إذ أن عدم تدخل حكومة الباب العالي في شئون الإيالات كان ظاهرة عامة في نظام الدولة العثمانية آنذاك،[3] لاسيما بعد تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية للدولة العثمانية، وظهور بعض الأسر الحاكمة ذات النزعة الاستقلالية، كالزيديون في اليمن، والشهابيون في لبنان وآل العظم في الشام[4] والأسرة الحسينية في تونس سنة (117هـ / 1705م) والأسرة القرمانلية في طرابلس سنة 1711 م.

الخاتمة :

وأخيرا يمكنا القول أن معركة تونس كانت آخر حلقة هامة في تاريخ الصراع الأسباني العثماني في الحوض الغربي من البحر المتوسط في القرن السادس عشر، ونخلص من خلال تتبعنا لمراحل هذا الصراع إلى نتيجة استدعاء الهجمات الصليبية لتأسيس الايالات المغربية تباعا – الجزائر 1518- طرابلس الغرب 1551-تونس 1574-و تحتم تبعيتها للدولة العثمانية وذلك بسبب الضعف و التفكك الذي كان يعانيه المغرب الإسلامي وقيام عدة دويلات ضعيفة ابتداء من دويلات الطوائف بالأندلس مرورا بالمغرب الأقصى والأوسط و الأدنى و هذا في طور الضعف العام و التفكك الذي كانت تعايشه الدولة الإسلامية وقتذاك و في الوقت نفسه الذي كان فيه الغرب الأوربي يستجمع قواه تحت راية الصليب ليتمكن من إنهاء الحكم الإسلامي في الأندلس ومتابعة تقدمه في بلاد المغرب .لقد استمرت الصبغة الدينية لهذا للصراع، بداية من الحروب الصليبية والحركة الخاصة بإبعاد المسلمين عن الأندلس في القرن الحادي عشر. وكان ذلك سبباً "رئيسياً" في تبلور المعركة في شكل صراع ديني بين المسيحية والإسلام استمر إلى ما بعد سقوط القسطنطينية وغرناطة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، مع الأخذ بالاعتبار نسبية العامل الاقتصادي في معظم الصراعات عبر التاريخ. . فبعد سقوط القسطنطينية سنة 1453م، واصل العثمانيون تقدمهم في أوروبا حتى أسوار فيينا سنة 1529م، ونظر الأوروبيون إلى الانتصارات العثمانية على أنها فتوحات إسلامية، ووقر في أذهانهم أن أي نصر عسكري يحققه العثمانيون، إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية "فباسم الإسلام فتح السلطان "محمد الثاني" عاصمة الدولة البيزنطية، واتخذها عاصمة لدولته، واستبدل اسمها بإستانبول ومعناه "دار الإسلام" وتداعت إلى أفئدة الأوروبيين ذكريات الفتوحات الإسلامية الكبرى في صدر الإسلام".

وأمام هذا الزحف العثماني لم يكن من دول أوروبا من تهيأت لها الظروف لمواجهته إلا أسبانيا التي توحدت عام 1481م، وتمكنت من كسر الحصار الإسلامي حول أوروبا والذي استمر

---

[1] كلمة "داي" تعني (العم) بلهجة رياس البحر المغاربة، انظر، العقاد، المرجع السابق، ص29.
[2] بروشين، المرجع السابق، ص59.
[3] المرجع نفسه، ص37 .
[4] عبد الكريم رافن، المرجع السابق، ص230، 231، محمد شاكر مشعل، المرجع السابق، ج2، ص3.

حتى سقوط غرناطة سنة 1492, و مواصلة غزو شمال أفريقيا ,كما اكدت الملكة إيزابيلا Isabelle، في وصيتها على عدم الانقطاع عن محاربة المسلمين أعداء الدين.

لقد حاولت بعض القيادات المغربية التصدي للهجمات الأوروبية، ولكنها فشلت في ذلك لضعف إمكانياتهم العسكرية والاقتصادية، وافتقادهم للوحدة السياسية، وعدم والاهتمام بالأوضاع الداخلية، وبالتالي عدم إمكانية مواجهة العدو الخارجي، ومثال ذلك "بنو زيان" الذين حاولوا التصدي للاحتلال الأسباني في وهران عام 1509م. إلا أن الأمر انتهى بهم إلى عقد صلح مع الأسبانيين سنة 1512، اعترفوا فيه بالاحتلال الأسباني لعدة موانئ في غرب الجزائر. فأدى هذا الاعتراف إلى الحد من الخطر الخارجي بالنسبة "لأمراء بنو زيان"، ولكنه أظهرهم بمظهر المتخاذلين في ظروف حرب دينية معلنة مع الأسبان وتزايد نزوح المسلمين المضطهدين من الأندلس، وبالتالي أدى هذا إلى انفصال القيادة عن قاعدتها، ومهد كذلك لاتجاه الرأي العام للبحث عن قيادة بديلة.

وفي هذه الظروف ظهرت على ساحة الصراع في غرب البحر المتوسط قوة جديدة، غيرت مجرى الأحداث تمثلت في الأخوين (عروج وخير الدين بربروسا) اللذان تمكنا وبمؤازرة الإمبراطورية العثمانية من التصدي لهجمات الإمبراطورية الرومانية (المقدسة) على بلدان المغرب الإسلامي، وابتدأ التواجد العثماني الرسمي في هذه المنطقة بضم الجزائر، كأول إيالة تابعة للإمبراطورية العثمانية سنة 1518 تلاها بعد ذلك تأسيس إيالاتي تونس وطرابلس الغرب.

قائمة المصادر و المراجع

أولاً: المصادر:

1- **ابن أبي الضياف**، أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق: عمر شمام، ج1، الدار التونسية للنشر (تونس، 1989).

2- **ابن أبي دينار**، (أبوعبدالله محمد أبوالقاسم القيرواني) المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس، تحقيق، محمد شمام، ط3، المكتبة العتيقة (تونس، 1387هـ).

3- **ابن غلبون**، (أبي عبدالله محمد بن خليل) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، عني بتصحيحه والتعليق عليه: الطاهر أحمد الزاوي، ط2، مكتبة النور (طرابلس، 1967).

4- **الأنصاري**، (أحمد بيك النائب) المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ط2، الناشرون دارف المحدودة (طرابلس – لندن، 1984).

5- **الوزير السراج**، (محمد بن محمد الأندلس ت. 1149هـ / 1736م) الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة (تونس، 1970).

6- **خوجه**، حسين، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوح آل عثمان، تحقيق: طاهر المعموري، الدار العربية للكتاب (ليبيا – تونس).

7- **روسو**، البارون ألفونص، الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ترجمة وتحقيق: محمد عبدالكريم الوافي، ط1، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1992).

8- **فيـــــــــرو**، شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة وتحقيق: محمد عبدالكريم الوافي، ط3، منشـــورات جـامعـة قـاريونس (بنغـازي، 1994).

ثانياً: المراجع:

1- **أبوعجيلـــــــة**، محمد الهادي، النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القرمانلية 1711هـــــ - 1835م، وأثره على علاقتها بالدول الأجنبية، منشـورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1997).

2- **الجيلالـــــــي**، عبدالرحمن بن محمد، تاريخ الجزائر العام، ج2، المطبعة العربية (الجزائر، 1955).

3- **الـــــــــزاوي**، الطاهر أحمد، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ط3، دار الفتح – دار التراث العربي (ليبيا، 1969).

4- **ـــــ**، الطاهر, أحمد، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، ط1، دار الفتح للنشر (بيروت، 1970).

5- **الشنـــــــــاوي**، عبدالعزيز، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ج1، ط5، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1986).

6- **ـــــــــ** ، عبدالعزيز، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، 4 أجزاء، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1986).

7- **الطويـــــــل**، أمحمد سعيد، البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرمانلي (1795-1832) دار الكتاب الجديد المتحدة (بيروت، 2002).

8- **العسلـــــــــي**، بسام، خيرالدين بربروس والجهاد في البحر (1470-1475) دار النفائس (بيروت، 1980).

9- **العقـــاد**، صلاح، المغرب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1962).

10- **ـــــــــ** ، صلاح، المغرب في بداية العصور الحديثة، منشورات معهد الدراسات العربية العالمية (القاهرة، 1963).

11- **المدنـــــــــي**، أحمد توفيق ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا "1492 – 792"، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر، 1976).

12 **بروشيـــــــن**، ن. أ.، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ترجمة وتقديم/ عماد حاتم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس، 1991).

14- **برينيـــــــــا**، كوستانزيو، طرابلس من 1510 إلى 1580، تعريب: خليفة التليسي الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان (مصراتة، 1985).

15- **بشتـــــاوي**، عادل سعيد، الأندلسيون والموراكة، مطابع International Press (القاهرة، 1983).

16- **بـــــــوزورث**، وشاخت، تراث الإسلام، ترجمة: محمد زهير وأخرون، ج1، ط2، سلسلة كتب شـهرية يصـدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (ضـمن مجلة عالم المعرفة) (الكويت، 1988).

17- **بوعزيـــــــز**، يحيى، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر، د.ت).

18- **رافـــــــــق**، عبدالكريم، العرب والعثمانيون (1516-1916)، مطابع ألف با – الأديب (دمشق، 1974).

19- **رزوق** ، محمد، الأندلســيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، دار أفريقيا الشرق، (الدار البيضاء، 1989).

20- **روســـــــي**، أتوري، طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا، ترجمة: خليفة التليسي، ط1، مؤسسة الثقافة الليبية، (طرابلس، 1969).

21- ـــــــــ ، أتوري، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة وتقديم، خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب (طرابلس – تونس، 1991).

22- **ريـــــــاض**، زاهر، شمال أفريقيا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1981).

23- **سامـــــح**، عزيز، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية (بيروت، 1989).

24- **عنـــــــان**، محمد عبدالله، دولة الإسلام في الأندلس - دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مطبعة التأليف للنشر والترجمة (القاهرة، 1970).

25- ـــــــــ ، محمد عبدالله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، مكتبة انجاز بنجي (القاهرة، د.ت).

26- **كـــــــــوران**، أرجمند، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (1827-1847)، ترجمة: عبدالجليل التميمي، ط2، الشـركة التونسـية لفنون الرسـم (تونس، 1974).

27- **مؤنـــــــــس**، حسين، تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ط2، الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، 1993).

28- **--------** ، حسين، تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، المجلد الثاني، الجزأن الثاني والثالث، دار العصر الحديث (بيروت، 1992).

30- **مشعـــــل**، محمد شاكر، الشمال الأفريقي والعثمانيون – ليبيا، العصر العثماني الأول 1551 – 1711 دار النهضة العربية (القاهرة، 1985).

31- **منصـــور**، محمد صالح، أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1996).

32- **هيـــس**، أندرو، افتراق العالمين الإسلامي المسيحي في المغرب والأندلس، ترجمة: أحمد عبدالرحيم مصطفى، منشورات ذات السلاسل (الكويت، 1986).

33- **يحيـــــى**، جلال، المغرب العربي – الحديث والمعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب (الإسكندرية، 1983).

ثالثاً: الدوريات:

1- **أميـــن**، محمد محمد، "شمال أفريقيا والحركة الصليبية 1189 – 1390م"، مجلة الدراسات الأفريقية، العدد1 (القاهرة، 1974).

2- **التميمـــي**، عبدالجليل، "الخلفية الدينية للصراع الإسباني – العثماني على الإيالات المغربية في القرن الســـادس عشـــر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 10 (تونس، 1978).

3- **ـــــــ** ، عبدالجليل، "رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية في القرن 16م"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 29 – 30 (تونس، 1983).

4- **ـــــــ** ، عبدالجليل، "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541" المجلة التاريخية المغربية، عدد 30 (تونس، 1975).

5- **الشريـــف**، م. هـ، الاتجاهات الجديدة في المغرب العربي – الجزائر – وتونس – وليبيا، تاريخ أفريقيا العام – القرن التاســـع عشـــر في أفريقيا حتى ثمانينياته، المجلد الســـادس، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ أفريقيا العام (اليونســـكو، 1996).

6- **جحيـــدر**، عمار، "الجهاد البحري في العصر الحديث، ملاحظات ومصادر"، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد الخامس، (طرابلس، 1985).

7- **حسيـــــن**، ممدوح، "جربة والهجمات الصليبية على أفريقيا في النصف الأول من القرن الثالث عشر" مجلة قاريونس العلمية، السنة الثامنة، العدد الأول والثاني، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1995).

8- **شريـــــف**، محمد الهادي، "الجزائر وتونس وليبيا: العثمانيون وورثتهم"، تاريخ أفريقيا العام، المجلد الخامس، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ أفريقيا العام (اليونسكو، 1996).

9- A.P.VELLA, "The Relatations between the order of MALTA and TRIPOLI", مقال ضمن أعمال مؤتمر "ليبيا في التاريخ" (بنغازي 16-23 مارس 1968).

رابعاً: الرسائل العلمية:

1- **شويتـــــــام**، أرزقي، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800 – 1830، رسالة غير منشورة (جامعة الإسكندرية، 1998).

2- **عبدالخالـــق**، مصطفى محمد، علاقة القوى الصليبية في غرب البحر المتوسط بالمغرب الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة القاهرة، 1987).